من أنا؟

طبعة إلكترونية

مروة خلخال

تدقيق ومراجعة: ب.سعاد عباسي

رواية

من أنا؟

تأليف: مروة حلحال
تدقيق ومراجعة: د. سعاد عباسي

إهداء:

إلى عائلتي الكريمة، أمي الحبيبة وأبي الغالي

توأمتي ورفيقتي الأبدية

إخوتي الكرام

أدماكم الله سندا لي

♡♡♡

وإلى مؤنساتي الغاليات ورفيقاتي

ياقوتتي الجميلة الخلوقة

وأختي الكبرى المبدعة وسام

ورفيقتي الغالية حنان

أنعم الله علينا بصداقتنا أبد الدهر يا مخلصات

♡♡♡

مـن أنــا؟..

الفصل الأوّل: ضائع

وسط تلك المدينة العربية، لمعت مختلف اللّوحات التّجارية لمختلف المنتجات بعضها للعلامة التّجارية 'إيميل' الخاصّة بالأجهزة التكنولوجية العالمية، والّتي هي ملك لعائلة 'إيمانويل'. تلك العائلة الغنيّة ذات الأصول الإسبانية والمقيمة في هذا البلد، معظم النّاس يعرفون عنها الظّاهر فقط دون معرفة ما يجري داخل قصر العائلة الفخم. ذلك القصر ذو الطّراز العتيق وكأنه من القرون الوسطى أو عصر حكم الدولة العثمانية، يجلس على عرشه هناك بهيبةٍ ووقارٍ في حيٍّ يليق بمقامه تعجب له الأنفس، ذو جنانٍ مليئة بشتّى أنواع الزّهور كأنّها مملكةٌ خياليةٌ من أحد روايات الفانتازيا المعروفة.

هناك على إحدى كراسي صالته ذات الأثاث الفخم، جلس أكبر أبناء العائلة والوارث الشّرعي للّشركة بعمرٍ لم يتجاوز العشرين سنة 'ليوهارد' بجانبه مساعدته أو بالأحرى نائبته 'ناتالي' الّتي قالت بنبرة الخادم لسيّده -تلك النّبرة التّي لم يحبّها ليوهارد يومًا لكن ناتالي التزمت بها فهي تعدّ نفسها في مرتبة أدنى منه ولو أنّ هذا مالم يظهره ليوهارد لها يومًا- مشيرةً إلى مسألةٍ لم يُعرها ذاك الاهتمام:

-"سيد ليوهارد قمت بالحجز عند الطبيب النفسي كما أمرنا المشفى، ولكن عليك أن تتذكر أن العلاج الأساسي يتعلّق بك أنت كونك أقرب شخص لليون، كونك عائلته"

ردّ ليوهارد بتنهّدٍ وسأم:

-"كيف لي أن أكون أقرب شخص له؟ بالكاد أعرفه، من أنا بالنسبة له حتى أشاطره مشاعره؟"

ردّت ناتالي: "لا أعلم يا سيّدي، لكن على الأقل حاول"

-"أنا مضطرٌّ لذلك على كلٍّ، تلك وصيّة أبي كما أنّي لم أتوقّع أن تكون حياته بذلك البخس ليُقدم إنسانٌ في مقتبل الحياة على فِعلةٍ كتلك"

-"هذا إن دلّ، يدلّ على وجوب تدخّلك، جرّب الحديث إليه علّه يستجيب لك أنت باعتبار أنه رفض الكلام مع الطبيب النّفسي الخاصّ بالجامعة"

ردّ ليوهارد: "لمَ لا.."

ما زلنا في ذات القصر، ولكن هذه المرّة في أحد الغرف الّتي لا تقلّ كبرًا وفخامةً عن سابقاتها تصرخ بثراء سكّانها، هناك على المكتب جلس فتًى في السادسة عشرة، لم يكن كليوهارد ذو ملامح أجنبية عن البلد، بل كان أشبه لسكانه ، إذ له ملامحٌ عربية ببشرةٍ بيضاء تميل للشّحوب وشعرٍ كسواد اللّيل، وعيونٍ رماديةٍ تَبرز ليس فقط لكبرهما، بل لكثافة رموشهما أيضًا مقترنة بالجمال الطبيعيّ للعيون العربية وكأنّه مزيجٌ بين العرب والأعاجم، إضافةً إلى قرط صغير في أذنه اليسرى، لم يكن من هذا النّوع الّذي يضع مثل هذه الإكسسوارات بحكم أنّه تربّى بين الأجانب، وهو منهم لكن ذلك القرط كان مميَّزًا لسبب خاصّ. على محيّاه ارتسمت نظرة حزنٍ وكآبةٍ لم تفارقه منذ ذلك اليوم المشؤوم، لم يكن هكذا قبلًا فليس له ملامح حادّة ولا شخصيةً كئيبة بل على العكس كان مرحًا جدًّا من المحطّم للقلب رؤيته بهذا التعبير

خصوصًا لليوهارد الّذي لم يره منذ كان طفلًا يضحك باستمرارٍ عندما لم يحمل قلبه همًّا، لكنّه الآن أضحى كالجثة جالسًا بعينيه فراغ رهيب ، بينما يوسوس له شيطانه

'ما سبب جلسوك المستمرّ؟ ألا تتألّم؟، الألم.. تخلّصْ منه دفعةً واحدة..

ارتح وحسب... هناك ألف وسيلة لتُسكت صخب الأصوات في رأسك، هناك ألف طريقة لتنهي حياتك..'

أفكارٌ سوداءٌ مشتّتةٌ زادته صداعًا على صداع، في حين راح يغلق النّافذة سريعاً بل ويُحكم إغلاقها، فهو لم يعد قادرا على مقاومة أفكاره التي تنبشه، لا يستطيع التّوقّف عن قتل نفسه بنفسه ببطء، وكأنّه لم يعد يبالي بالحياة أو من فيها.

الفصل الثاني: أخ

لم يبق أسير تفكيره فأقرّ بضرورة التّشجع، فصعد على الدّرج بخطواتٍ متثاقلة، في العادة يسهل عليه محادثة رجال الأعمال بلغة المديح والتملّق، لكن الأمر الآن مختلف فتوجّه نحو غرفة ليون، غرفةٌ لم يدخلها بل ولم يعرف بوجودها أصلًا، وذلك ليس غريبًا على كلٍّ فهو دائم السّفر فكان لا يزور القصر إلا ليرى والده بين الفينة والأخرى، لكنّ أباه لم يعد موجودًا.

صار القصر شبه خالٍ لم تشفع لصاحب القصر أيٌّ من تلك المنحوتات الفاخرة، كلّ ما بقي شبح فتى بالكاد يعرف ملامحه 'أوليس أخي!' فكّر ليوهارد وهو يحاول تذكّر ملامحه الّتي لم يرها منذ سنين طويلة غطّت عليها ملامح أشخاص من بلدان مختلفة 'أوليس بيتي؟ بلى إنّه كذلك! إنّي وارث البيت، لماذا أتردّد إذن؟!.. إنّك لم تعش فيه، ذلك صحيحٌ فعلًا لكن ليون أخي!، لا بل ليس كذلك ، بل هو كذلك.. كم عمره على كلٍّ؟.. كيف من المفترض أن أبني علاقة مع شخص التقيته منذ سنين طويلة ولم أعرف عنه شيئًا من وقتها عدا أن يكون أخي!، لكن.. أبي تركه وحيدًا، مدمَّرًا، بالكاد لمحته في الجنازة، هو لم يبكِ مع أنّه أحقّ النّاس بذلك، وقف يحدّق في نعشه نظرة فراغ.. نظرة سأمٍ من الحياة'.

مازال يحدّث نفسه وقد بلغ الباب بالفعل، ثمّ وفي لحظةٍ واحدة فتحه بكلّ ما أوتي من قوةٍ وولج الغرفة كأنّه يغزو بلدًا!

-"يا لي من أحمقٍ متهوّر!"

قالها بعتابٍ مخاطبًا نفسه بعد أن وقع في ذلك الموقف، حينما تُقدم على فعل شيءٍ ما بكلّ حماسة حتّى تجد نفسك في وسط الموقف والجميع يحدّق بك، ولكن بهذه الحالة كان ليون من يحدّق به ما جعله يُحرج بشدّةٍ فبدت له تلك الدقائق الّتي بقي خلالها ثابتًا كالعمود سنين طويلة..

-"أأنت بخير؟، تبدو قلقًا"-أخيرًا نطق ليون وخلّصه من الموقف فردّ:

-"آه أجل، كنت أريد أن أكلّمك"

رسم ليون ابتسامةً على محيّاه لم تكن كاذبة، كان سعيدًا بالفعل لأنّ أخاه الأكبر تذكّر وجوده، لأنّ أحدهم يعرفه، فأجاب:

-"تفضّل، ليوهارد"

-"آه، حسنا تعرفني.. آم إذن، تمنّيت لو نتكلّم أكثر"

ليون: "حسنًا، بما أنّك الوصيّ عنّي فقد بدأتْ الدّراسة قبل مدّة، هل سألتحق بها هذه السّنة؟"

ليوهارد: "بالطّبع.. ما رأيك بدخول مدرسة عمومية بما أنّك كنت تدرس بالبيت؟"

-ردّ دونما تفاعل كأنّما كان ينتظر حديثًا آخر: "كما تريد"

-ليوهارد: "رائع، تعال للعشاء بعد قليل"

-" شكرًا بصحّتك لست جائعًا"

-"عليك أن تأتي"

-"أمرك"

بعدها؛ غادر ليوهارد، وهو يفكّر في هذا الحديث الغريب وتلك النّبرة المحترمة التي يتكلّمان بها، 'أظّن أنّنا إخوة، وهل يتكلّم الناس هكذا مع إخوانهم؟' قاطعت حديثه الداخلي ناتالي الّتي قالت:

-"هل كلّمته؟"

-"نعم، عكس قول الطّبيب أرعبتِني بلا سببٍ فحاله ليس بذلك السّوء"

-"حقًا؟، قال الطّبيب أنّ استجابته للكلام شبه معدومة، هذا يعاكس كلامك"

-"ربّما، سأعود"

عاد الشاب بخطواتٍ متسارعة يلعَن في الطبيب الّذي أرعبه، هناك اختلافٌ كبيرٌ بين أن يُطلب منك التّقرّب إلى شخصٍ سيبقى معك، والتحدث إلى شخصٍ مريضٍ نفسيًّا لدرجة الإقدام على الانتحار ومازال سيبقى معك، هل هو مرعب؟

هو مجرّد صبيّ، لكنّه شخص قرّر التّخلي عن حياته..

ماذا لو بقيتَ عاجزًا أمامه؟، ماذا لو أخلفتَ وعد والدك بالحفاظ على تلك الأمانة؟، ماذا لو اختفى شخصٌ من أمامك تدريجيًا وأنت تراه مقيّدًا بالعجز؟؟ فقط ضع نفسك مكان ليوهارد.

وصل أخيرًا للباب ولكنّه توقّف في مكانه وكلمات ناتالي تتأرجح بين أُذنيه، في صميمه تساءل إن كان يمكنه اعتبار الكلمات القليلة التي قالاها لبعض تواصلًا فعّالًا، غير أن صوتًا خفيفًا غطّى على صوت أفكاره المتزاحمة، صوتٌ أشبه بالأنين، صوت من يبكي بلا دموع، من يعجز عن

التّنفس ويحاول الاستنجاد بمن حوله ليدرك أنّه يخنق نفسه بنفسه، لكنّه رغم ذلك فتح الباب وقرّر الدخول فجأةً حتى أنّ ليون لم يلحظ دخوله. كان فقط جالسًا على المكتب وهو ملقٍ برأسه بين ذراعيه، فاقترب ليوهارد بهدوءٍ ثمّ لمس كتفه ليلتفت إليه بسرعة، لقد أفزعه، وربما آلمه لكنّ نظراته لم تعبّر عن أيٍّ من ذلك كانت نظرةً فارغة.. هل كانت عيناه دائمًا هكذا؟

هما رماديتان، لكنّهما أشبه بسماءٍ حالكة الضّباب..

-"نعم؟ "-سأله ليون دون تعبيرٍ واحدٍ على محيّاه، ذلك أدخل الرّعب لليوهارد إنسان بلا روح!. حينها تذكّر ليوهارد ذلك الصّوت قبل قليل فسأله:

-" هل كنت تبكي؟ "

-ردّ بسخرية: "لا يمكنني البكاء!"

تلك الكلمات فسّرت ذلك الصّوت، عندما يعجز الإنسان عن تفريغ قلبه بالدموع فيحاول الصّراخ فيفقد صوته! ذلك النوع من الاكتئاب هو ما كان في عينيه، تلك الحالة التي جعلته يبدو هكذا، تنهّد ليوهارد هو يعرف أنّه ينسلّ من بين يديه، ربّما يُقدِم على الفعل نفسه!

-"أخي... "-قالها ليوهارد دون وعيٍ منه

-" تقصدني؟ "

-"بالطبع! "

-ليون: "حسنًا شكرًا على لطفك لكن كلانا يعلم أنّي لست بأخيك، لستَ مضطرًّا للاهتمام بي"

-"هذا واجبي!"-قالها ليوهارد بغضب، وهو كذلك بالفعل! فربّما يكون قلقه اتجاهه إنسانيةً منه، لكنّ الدافع الأقوى لكلّ هذه الأفكار التي أضحت تراوده هو وصية أبيه.

بالمقابل كان يحتاج لتلك الكلمات فقط ليعرف نوع العلاقة التي تجمعهما، فردّ ببرود:

-"بالتوفيق في واجبك ليوهارد أو أخي، هل تقصدني حقًّا؟، ما رأيك أن تناديني واجبي! "

-"هذه وقاحة! "

-"آه، آسف لم يكن عليك أن تحمل على كتفك هذا الحمل"

ومن ثمّة أعاد رأسه إلى موضعه الأوّل فهو لم يحدّق به بعد دخوله حتّى، في حين خرج ليوهارد غاضبًا وفي الوقت نفسه حزينًا وربما نادمًا لأنّه لم يعرفه من قبل، "لم يكن عليّ قول ذلك، هذه قسوة" ما كان له سوى أن يلجأ إلى ناتالي فهي كلّ من بقي له في هذا العالم يحدّثها عن خوفه من أن يخسره ويُخلف وصيّة والده العزيز، يخبرها عن استغرابه من تعامل ليون معه وعن الوضع الذي وجد كليهما نفسيهما فيه.

«أخي، يا لها من كلمةٍ جميلة.. لكنّها ليست الإجابة الصحيحة، إنّها مزيّفة! ليست الإجابة لما أبحث عنه، لما لا يمكنني العثور على الإجابة داخلي أو

داخل أيّ شخصٍ آخر يراني من منظوره بطريقةٍ ما؟ ما الخطأ في أن تحاول أن تجد إجابة لنفسك.. من أنا؟ إن عرفتُ الإجابة هل يحقّ لي أن أعيش؟».

الفصل الثالث: طفلٌ صغير

للكلمات أثرٌ كبيرٌ على الفرد، خصوصًا إذا رافقتها نبرةٌ تدلّ على أنّ ما قيل كان للأسف صدقًا..

عندما حان موعد العشاء اجتمع أهل القصر من خدمٍ وسادةٍ على طاولةٍ واحدة، فقد كان ذلك قانونًا وُضع منذ تشييد هذا القصر من قِبل سيّده الذي فارقه قبل مدةٍ قصيرةٍ، كان ذلك ما اكتشفه ليوهارد في أوّل عشاءٍ يجمع الأخوين غير الشقيقين أو كما اعتبرها ليون 'العبء وحامله'، وبينما يتناول البقيّة عشاءهم بصمت ترامت نظرات من ليوهارد من حينٍ لآخر إلى أصغر فردٍ على الطّاولة، وهو يداعب طعامه ويبلعه بصعوبةٍ وتكلُّفٍ، لقد أثار ذلك حنق ليوهارد إذ أنّ ما يراه عدّه تكبّرًا عن النّعمة، فقد بدأ سلفًا يبني أفكارًا عن هذا الكئيب وراح يفكّر في أبيه المتوفَّى، وكيف عاش معه فهل كان دائما بتلك التّعابير الباردة؟

قاطع تفكيره صوت جرّ الكرسي، إذ نهض دون أن يُكمل طعامه ولم ينتظر الإذن من أحد، بل صعِد إلى غرفته فاستحمّ ثمّ قرّر النّوم، وعلى فراشه بدأ التفكير..

'إلى متى سأبقى هكذا؟ أتمنّى لو أنّ الشّغف يعود لي، هل كنت ستجبرني على النّهوض، توبّخني ثم تراضيني كالطفل الصّغير، هل كبُر هذا الطفل؟ أجبني يا فقيدي، أين أنتِ في هذا الوقت العصيب يا أمي.. أجيباني إن لم أكن ابنكما، إن لم أكن جزءًا من هذه للعائلة، فمن أكون إذًا؟..'

بزغ فجرٌ جديدٌ مُداريًا اللّيل وأحزانه، فأفاق ليوهارد على صوت ناتالي:

-"يا سيّدي آهٍ منك لا يليق لعشريني أن ينام لهذا الوقت"

-"صباح الخير، لست سيّدكِ ولما توقظينني مع الفجر ديكٌ أنا!"

-"صباح النور، انهض لديك الكثير لتنجزه اليوم "

-"ناتالي، صحيحٌ أني عشت حياتي أتعلّم كيف أُسيّر الأعمال، لكن من المرهق حقًا تولّي مسؤولية شركةٍ بمعايير عالمية من أوّل مّرةٍ!"

-"أعلم أعلم، لكن لا تسمح لأعدائنا باستغلال الفرصة، أيضًا هذا الأسبوع مليءٌ بفرصٍ لا تعوّض لأجل توسيع عملنا "

-"أعلم، بالمناسبة ، ماذا حدث لذلك الولد؟ "

-"ما زلت تفكّر به؟، ألم تقل أمس أنّك لا تأبه له؟ "

-"الصراحة عندما مات والدي شعرت بالحزن حقًّا، لكنّ حزني لن يصل لمقدار حزن ليون، حتّى لو لم أكن قريبا منه ورغم أنّي لم أعصه في شيء إلاّ أنّني لم أحسسه بحنان الابن كما فعل ليون، عدا أنّي لم أره منذ سنوات ليصلني خبر وفاته، منذ موت والدتي تركته وحيدًا فكان ذلك الفتى سنده، قال أبي إنّه حرم نفسه من أيّ علاقةٍ وفضّل الدّراسة بالبيت فقط ليبقى معه ولا يشعره بالوحدة، لكن الآن بعد وفاة والدي أمام عينيه يبدو كأنّه فارغٌ من الداخل"

-"من فضلك لا تلم نفسك، مستقبلك بين يديك أنت لم تقصّر مع أبيك في شيء، وإن كان عليك فعل شيءٍ ما فافعله مع ليون لتشكُره على ما قدّم لهذه العائلة، وكن واثقًا السيد 'أوليفر' لطالما كان فخورًا بك"

-ابتسم ليقول بامتنان: "شكرًا ناتالي"

-"هذا واجبي"

-"أتساءل من منّا هو الابن الحقيقي "

- أبعدت عنه الغطاء لتقول: "كفى تفكيرًا! هيّا انهض"

-"حاضر"

ابتسمت ناتالي بلطفٍ وهي تراقب ليوهارد النّعس يفرك عينيه، لقد أرادت حقًّا الوقوف معه في أصعب المواقف، فالفضل الّذي أكرمها به لم تنسه طول حياتها..

في ذات الصّباح، تجهّز ليون للذّهاب لمدرسته، إنّه عامه الأوّل في الثّانوي، فحاول الابتسام قليلًا في المرآة لكنّه عجز عن ذلك، ما أغرقه في حزنٍ عميقٍ ناتج عن عجزه، فهو بالفعل غير قادر على رسم التّعابير على وجهه، تلك علامات الاكتئاب على كلّ حال، ليتوجّه نحو الأسفل ويُجبر نفسه على أكل بعضٍ ممّا أعدّته له الخادمات، وفي كلّ مرّةٍ يهُمّ بالنّهوض يتذكّر 'جورية'، تلك الخادمة الّتي يعرفها منذ وصل لهذا القصر، قد تبدو مجرّد خادمةٍ لا شيء مميّزًا فيها عدا أنّها أُمٌّ لطفلين وزوجةٌ لسائقٍ يعمل بالقصر، لكنّها في الحقيقة كانت شخصًا مهمّا عند ليون، فقد أدرك ذلك عندما طرقت باب غرفته بعد أن نام الجميع بالليلة الماضية، ودونما مقدماتٍ أخذت تحضنه وتقاوم الدّموع في عينيها، فقالت جورية والعبرات تخنقها:

-"كم أحزنني ما آلت إليه الأمور، لكن ما جرى قد جرى!، أُنظر إلى نفسك، أنت بالفعل مصابٌ قد شحبت وقلّ وزنك، ألم تعد ترغب بالعيش؟

هل ستسمح للحزن أن يضيّع جهود السيد أوليفر؟ تعال معي الآن لم أعد أتحمّل رؤيتك تموت أمامي"

سحبت يده وهي تشرع بنزول الدرج إلى أن وصلت للمطبخ، كانت قد أعدّت بعض الحلوى التي عشقها ليون عندما كان طفلًا علّه يأكلها فهو بالكاد يأكل بسبب اكتئابه وانعدام شهيته، ربما كان تفكيرًا غريبًا أن تجرب تحسين حالته بالحلوى، لكنّها في الأوّل والأخير مازالت تراه طفلا، تلك حال الأم دائمًا فلو شاب أبناؤها بقوا أطفالًا بنظرها، وما زالت نظرتها له كذلك في حين أنّ نظرة ليون الميتة لم تتغير، فلبث لفترةٍ دونما حراكٍ أو تفاعلٍ ثم وأخيرًا حمل إحدى القطع وقضمها ،ورغم أنّه أراد التقيؤ، إلا أن منظر تلك السّيدة اللطيفة وهي تبتسم بأملٍ بعد أن رأته يتناول الحلوى التي أعدّتها خصّيصًا له، وطبيعتها كأمٍّ تمنعها من البكاء لتبدو قويةً أمامه، جعلت من بلعها أمرًا يسيرًا بالواقع أسهل بكثيرٍ ممّا سبقها من قضماتٍ كان يأكلها حتى لا يموت فقط، عندما أدرك ذلك نظر إليها وابتسم ابتسامةً خفيفةً أعادت بعض الحياة لتلك العيون الرمادية، ذلك كان كفيلًا بجعل دموع جورية تنهمر، لتعانقه بقوةٍ ولكن بحنانٍ ب في الوقت نفسه، لقد أزالت تلك الابتسامة جزءً من هموم قلبها، وهل هناك ما يسعد الأم أكثر من بسمة أولادها وامتنانهم لها؟.

-"تصبح على خير، ليون"

-وأنتِ"

والآن، غادر كلّ منهما إلى غرفته، عندما ارتمى على فراشه توهّم أنّ الكوابيس ستؤرّق نومه مجدّدا لكنّها لم تفعل، فتلك الحلاوة في فمه أشعرته

بدفءٍ بعد أن كانت الغرفة موحشة، ولهذا ولأجلها فقط هو واقفٌ يحاول الابتسام اليوم.

«من كان يظنّ أنّكِ قادرةٌ على بثّ الدفء في كياني، ربما أنتِ الوحيدة التي ستذرف الدموع إذا رحلتُ، فهل يجب عليّ ذلك حقًا؟، هل يحزنك وجودي أكثر من ذهابي؟ هل أنا عبءٌ عليك كذلك أم أنه حبٌ خالصٌ لا ينتظر مقابلًا؟

ربما أنا مجرّد طفلٍ صغيرٍ يسعد عندما تُعدّ أمّه حلواه المفضلة، إن كان ذلك أنا هل يمكن لهذا العالم القاسي أن يقبل هذا الإنسان حتى وإن لم يعد طفلًا؟.. لم أعد طفلًا مدلّلاً يا من تراني صغيرًا أبد الدّهر.. لقد صرتُ.. من؟ من أكون؟ ».

الفصل الرابع: غريبٌ بينما هو عادي

المجتمع، ذلك الفضاء المكتظّ بالناس من كلّ شكلٍ ونوعٍ تختلف أشكالهم كما تختلف ألبابهم فلكلّ منهم حياة، شخصية، حلم، يقابلون بعضهم بشكل يوميٍ ويتعرفون على مختلف أجناس البشر بحكم ما يفرضه انتماؤهم لهذا المجتمع، وغالب تلك المعارف سطحيةٌ لا تنفكّ تكون عميقةً حتى تنهار!

للوهلة الأولى إذا رأيت مراهقًا يهُمّ بالدخول إلى ثانويته، سيبدو لك شيئًا طبيعيًا، ذلك انطباع عاديٌ يفتح فرصةً للتواصل، لكن ذلك ليس المجتمع الذي نعيش فيه، إن كان بك خطبٌ ما فلا شكّ أنك ستلاحَظ! فستلقى إمّا فضولًا إنسانيًا أو تجاهلاً وبحكم الاختلاف، في ذلك الفتى سترى شحوبًا، كآبة ونظراتٍ ميتة، فيا ترى ما هي فكرتك حول هذا الشخص؟ هل يبدو لك فردًا ككل الأفراد؟ ألن تحكم عليه من البداية؟

حتّى إن أجبت بلا، وحتى وإن لم تحكم عليه بشيء فإنّك بلا وعيٍ منك قد رسمت صورةً أوليةً لمن قد يكون وكيف سيكون معك هذه السنة، وهنا مربط الفرس! أيفسّر لك هذا لِم حاول الابتسام؟ إنّه فقط خائف.. خائفٌ من البشر.

***

تلك اللّيلة الهادئة جعلت نفسيته أفضل بالصباح، ورغم فشله في التظاهر بالابتسام لكنّه قرر خوض تجربةٍ اجتماعيةٍ جديدة، فهَمّ بالخروج من الباب وهو يقول بعفوية:

-"أنا ذاهب..."

لوهلة، تسَمَّر في مكانه وأدار رأسه نحو الرّدهة، ليقابل المنظر الذي قلب مزاجه، ذلك المنظر الّذي أدخل خليطًا من الرّعب والحزن العميق إلى فؤاده، لكنّه للأسف مازال عاجزًا عن البكاء، بل في تلك الحالة ما أراده حقّا كان الصّراخ، غير أنّ حباله الصوتية لم تستجب لتلك الرغبة.، بدلًا من ذلك خرج مسرعا وكأنه يهرب.. يركض ويركض ، واستمرّ في الرّكض، واستمرّ، حتى خرج من القصر، متجاوزًا الحديقة إلى أن تخطّى الحيّ بأكمله..

ما كان ذلك المنظر الذي أرعبه؟

لا، لم يكن وحَشا مهيبًا ولا شبحًا، ليس هذا الرّعب الذي أثاره بتلك الطريقة، ببساطة كان لا شيء.. لا شيء على الإطلاق!

مجرّد فراغ، من البديهي أن تسأل ما المرعب في لا شيء؟ حرفياً إنه لا شيء!

إنّه ببساطةٍ وجهٌ من وجوه التّغيير، عندما تتغيّر تلك التصرفات العفوية التي اعتدنا على القيام بها دون البحث عن مبرّر، شيءٌ نمطيٌّ نفعله لأنّنا معتادون عليه، وعلى ردة فعل مَن حولَنا اتّجاهه، أيبدو لك مجرد سخف؟، ولكن مهلًا لحظة، ماذا لو نهضت صباحًا وكان كل شيءٍ عاديًا كأيّ صباح؟، لذا قمت بما تفعله يوميًا من أبسط الأمور كأن تمدّ ذراعيك لتدرك في لحظةٍ واحدة أنّهما غير موجودتين! ما نوع الشعور الذي سيعتريك؟

ذلك بالضّبط كان إحساس ليون، عيناه لم ترَ وأُذناه لم تسمع ما اعتاد عليه كلّ يوم، مجرد فراغٍ وإحساسٍ موحشٍ بالوحدة، ذلك شعورٌ لن تستشعره

إلاّ حينما تفقد شيئًا غاليًا عليك سواءً أدركت كم هو غالٍ قبل أو بعد فقدانه، وأحسّ بالنقص جراء هذا الفقدان الموجع..

وبعد كل ذلك الرّكض توقّف أخيرًا فقد انقطع نفسه، واجتاح الضيق صدره، فأدرك أنّه ضغط على جسده، لكن لا حيلة لديه، كان يهرب وحسب، ثم استلقى على الجدار خلفه وهو يحاول تنظيم تنفّسه المضطرب أصلًا جراء مرضه، ليصير حينها منظر السيارات تتسارع أمامه منقبًا في دهاليز نفسه وشرورها عن رغبةٍ دفينة، رغبةٍ في أن يكون جزءً من ذلك الفراغ، وربّما هو بالفعل في فراغ، وبعد استراحةٍ قصيرةٍ هدأ قلبه قليلًا لينهض بهدوءٍ يمشي مترنّحًا نحو الطريق السريع، ثم وقف عند الحافة، وفي لحظة توقّف عن التّفكير في كل شيء بالحياة، ونسي كلّ ما مرّ وكأنّ عقله خاوٍ تمامًا، تلك النّشوة جرّاء هذا الشّعور جعلته يرغب في التقدّم أكثر نحو النهاية..

وفجأة، شعَر بيدٍ تلامس كتفه وتسحبه بهدوء، أيقظته تلك اللّمسات من حلم اليقظة الذي كان يعيشه، وأمّا عن صاحبتها فقد كانت فتاة بعمره تقريبًا من نفس مدرسته، ذلك واضحٌ له من زيّهما الموحّد، وقفت ترمقه بنظرة استغراب ثم سألت بهدوء:

-هل أنت بخير؟ "

-نعم، شكرًا"

-العفو، أتحاول أن تقطع الشارع؟"

-ربما.."

-بدا الأمر وكأنّك تسمّرت في مكانك على طرف الشّارع، ذلك خطير"

-ردّ: "مجرد دوار"

-"حذار، قد تؤدي نفسك"

-"حقّا.."

تحاشى ليون النّظر المباشر لها ما جعلها تستغرب قليلًا، لكن جُلّ ما فكّرت به أنّه مجرد شخصٍ أصابه الدّوار عندما كان على وشك قطع الشّارع، لتقول كاسرةً الصمت:

-يبدو أنّنا متّجهان للمدرسة نفسها، متأكدٌ أنك بخير قد يعود الدّوار؟، أتريد أن أرافقك؟ "

-لا داعي، شكرًا لك على كلّ حالٍ فهذا لطف كبير منكِ"

ومع ذلك، انتهى بهما الأمر يسيران في الطريق نفسه وهي ترمقه بنظرات اهتمامٍ وربّما قلق، وهكذا بقيت لفترةٍ تحدّق في ملامحه المتصلّبة على بشرة شاحبة، ذلك أقنعها بروايته فربّما كان بالفعل وقد أصيب بالدوار لهذه العلة، ترامت نظراتها في حين لم ينظر إليها ليون أبدًا وهما يسيران مع أنه لاحظ تحديقها به، إلى أن أدار عينيه نحوها دون سابق إنذارٍ ما أشعرها بخجلٍ شديدٍ فأحْنَت رأسها في استحياء، لكنها ما لبثت حتى أعادت رفعه وسألته محاولةً تناسي موقفها المحرج:

-أتضع قرطًا؟"-كانت تشير بكلامها إلى القرط الأسود الذي يتوسط أُذنه اليسرى

-ليون: "أجل، هل يبدو ذلك غريبًا؟"

-لا، لكن المؤسّسة تمنعه لذا ستقع في مشاكل إذا رآك أحد المعلمين"

- "ليس باليد حيلة إنّه ملتصقٌ بأذني، لا أستطيع نزعه"

-"لديّ فكرة! "

راحت تخرج من محفظتها لواصق جروحٍ ثم أعطته واحدة منها لتقول:

-ضعها على أذنك، لن يلاحظها أحد هكذا"

-"شكرًا لك، أنتِ لطيفة بالفعل، بالمناسبة ما هو اسمك؟"

-"كوثر أحمد، تشرفت بك، وأنت؟"

-"الشرف لي، أنا إيمانويل ليون"

من الغريب حقًا أن تعرف نفسك باسمك عندما لا يكون اسمك! راودته تلك الفكرة في حين علّقت كوثر قائلةً: "أجنبي!"

ليهزّ الآخر رأسه دلالةً على صحّة كلامها، كان ذلك الحديث كافيًا ليصلا إلى الطابق العلوي حيث الصفوف، ويبدو أنهما في صفين مختلفين لكن من نفس السنة، ليدخل كل منهما صفه وقد نال كل منهما انطباعه الأولي عن الآخر. كانت تلك بداية خير ولكنه ما إن دخل عبر الباب، حتى اعتلاه شعورٌ غريب، وغمره إحساسٌ شديدٌ بالغربة، لقد قالتها هو أجنبي عن الجميع، هو غريبٌ بينما هو عادي، ثم ذلك الإحساس بأنك مراقبٌ من الجميع، رغم أنه لم يجرؤ على رفع عينيه عن الأرض، غير أنّ أُذناه سمعت بوضوح تهامس الطلاب ومنهم من راقبه بالوجه الصريح وكأنهم كانوا تواقين لرؤيته، ليتقدم بعدها وهو على الحال نفسه إلى أحد المقاعد ثم جلس، لم يكن من الصعب ملاحظة نفور من كان حوله واقتراب

بعضهم الآخر نحو طاولته، الجو العام للمكان كان خانقًا حقًا، هناك أمر خاطئ، لكنه لا يعرف ما هو..

«الجميع يراقب، يترقّب، من أنا لأكون محطّ كلّ هذا الاهتمام؟ يبدو أنني غريب عن الجميع، لماذا إن لم أكن منكم فمن أنا إذن؟ ذلك يرجعني إلى تلك اللحظة، إلى ذاك الشعور الجميل عند الشارع هل كان علي أن أكون أكثر شجاعة؟».

الفصل الخامس: عصفورة

إنّ المكان مزدحم لكنّي أشعر بالوحدة، أسمع بوضوح صوت همساتهم وضحكاتهم، ولكن ما الذي يحدث؟ لِمَ أنا مركز اهتمام الجميع؟ ظننت أنّ دخول مدرسةٍ عامة سيكون تجربةً اجتماعيةً جيدة لكنه بالواقع فضيع! هل كل الناس هكذا أم أنّ هناك أناس مختلفون أمثالي؟.

***

كانت بالفعل قد مرّت الحصّة الأولى فوق قلب ليون كما يقال، فلازال يستشعر حديث من حوله حتى أصابه الصّداع منه، إذ لم يقوَ على رفع رأسه من على الطّاولة حتى شعر بوخزٍ طفيف على كتفه إذ يبدو أن الأخيار يخزون كتفك دومًا، ليرفع رأسه وأخيرًا منذ بداية اليوم، كان الأستاذ واقفًا على رأسه ليخاطبه متسائلًا: "هل أنت بخيرٍ يا بنيّ؟"

-أجاب: "نعم أستاذ، مجرّد دوار"

-الأستاذ: "إذا تفاقمت حالتك فلتذهب إلى الممرّضة، اتّفقنا؟"

-"حاضر، شكرًا"

فكّر يا له من شخصٍ لطيف، أو أنه واجبه كأستاذ، ثم أدار رأسه ملقيًا بنظراتٍ متثاقلة حول الصّف، إلى أن توقّف عند أحد الطلاب الذي كان يراقبه بشكلٍ خاصٍ وكأنه يعرفه، لم تكن تلك الابتسامة غريبةً عليه فقد كانت تعود ل 'هيثم عبد الرحمان'، صديقه الذي عرفه من خلال العداوة التي كانت قائمة بين شركتي والديهما، نعم عداوة!

لطالما تنافسا في كلّ شيء، ليس لحبهما للتنافس بل لأهمية الأبناء وإنجازاتهم في عالم رجال الأعمال، ما جعل كلًا منهما يعيش ضغطًا هائلًا من قبل أهاليهما، لقد فهم ليون في الحال ما يحدث حالما لمح ابتسامته تلك، 'مريضٌ نفسيّ' يا لها من كلمةٍ ذات وقعٍ قويٍّ في مجتمعاتنا، فمع الأسف نحن في عصرٍ يُعامَل به المرضى النّفسانيون على أنّهم مجانين، وذلك لجهل معظم الناس حول هذا النوع من الأمراض، فهو بالفعل شُخّص بالاكتئاب وبعض الاضطرابات الأخرى كالأزمة الوجودية القلق غير المبرّر والأفكار السادية، وحقًا قد حاول الانتحار مرّة من قبل، لكنّه ليس مجنونًا أو راغبًا بالقتل!

كلّ تلك التفاصيل كانت في جعبة الطلاب الذين نفروا منه وتعجّبوا أيضًا، أنت لا ترى مريضا نفسيا كل يوم! ذلك كان تفكيرهم الطّفولي إلى حدٍّ ما، فراحوا يراقبون تصرّفاته بعد أن فعلت بهم الشائعات ما فعلت، ومنهم من تجنّبه لخوفهم من أن يؤذيهم، والحقيقة أنه طالبٌ مثلهم مُرهَق الرّوح فقط، وهم من أذوه بفعلهم ذاك ليس هو من أذاهم، وكأنهم يرفضون وجوده وينكرونه، فاستمرّ الحال هكذا إلى أن دقّ جرس الحصة الموالية، فتوجّه هيثم إلى ليون ناظرًا إليه بتعالٍ وكأنّه ربحه للتوّ:

-"مرحبًا، كيف حالك؟"

-"أهلًا.. هيثم"

-"هل تحسّنت صحتك؟ كنت مريضًا آخر مرّة رأيتك فيها"

-"نعم، خصوصًا بعد ما نشرت كل خبرٍ سمعته عني! لا أصدّق أنّك وصلت لهذه الدرجة"

ردّ هيثم مدافعًا عن نفسه:

-"بحقك، كنت أحذّر الطلاب فقط انتبه أن تفعل شيئا خاطئًا يثير رعبهم أكثر وتذكّر أنا أراقبك، آه أخطأت.. الجميع يراقبك"

-"تراقبني ؟ لا تقلق لا أنوي الموت اليوم فقد فشلت صباحًا"

-""حاذر"

مباشرةً نهض ليون إلى الخارج تاركًا إيّاه واقفًا حيث كان، وعلى عتبة الباب اصطدم بأحد الطلاب الذي كان يسرع بالدخول

-ليون: "آسف"

-الفتى: "لا عليك آسفٌ أيضًا كان عليّ التوقّف عن الرّكض في الممرّات"

-ردّ ليون ساخرًا: "تظنّ؟"

-"أجل، مهلًا أنت تدرس معنا!"

-ردّ متسائلًا: "وبعد؟؟ "

-"أنت ذلك الفتى الذي كان الطّلاب يتحدثون عنه من الصباح! "

ردّ عليه بحسرةٍ غريبةٍ وشبح ابتسامة يطوف حول شفتيه المزرقّتين:

-"آه، أجل صرتُ معروفًا على ما يبدو"

اقترب ذلك الفتى منه حتّى كاد يلتصق بوجهه قائلًا: "ما شاء الله، عيونك رمادية!"

من صدمته، عاد ليون للوراء قليلا ليردّ: "صحيح، سبحانه"

-"لون مميز، ربّما لأنك أجنبي، رائع! على كلّ أدعى 'إياد روح الله' أنت إيمانويل صح؟ "

-"أصبت"

-"لا تبدو غريبًا ولا غامضًا كما قيل عنك"

-"تظن؟، على أيّ اسمح لي بالخروج"

ما كاد ينهي جملته حتى اقتحمت إحدى الفتيات الحديث لتقول بنبرة آمرة:

-"ابتعدوا عن الباب يا معشر الواقفين!"

-إياد: "أوف 'رحيل'، يا لكِ من متسلّطة جلطتِ الولد!"

-رحيل: "أُنظروا من يتكلّم، ألم تكن تهرب؟ "

-ردّ مستدركًا: "صحيح! نسيت تمامًا"

قاطع حوارهما ليون بنفسٍ مقطوع:

-"رجاءً.. دعاني أمرّ"

ابتعد كل منهما فمرّ ليون مختفيًا بالرواق ليكملا كلامهما:

-رحيل: "أليس من قال عنه هيثم أنّه.."

-"مكتئب؟، يبدو طبيعيًا"

-"وما أدراك يا متخاذل؟!، احذر منه غلم لم يكن لينشر عنه هيثم كلّ هذا بلا سبب، أصلًا هو وحده الذي لم يدرس مع صفّنا من قبل"

سمع هيثمُ حديثهما فجاء إليهما متدخّلًا:

-"تتحدّثان عن ليون؟"

-إياد: "نعم، نشرتَ العديد من الشّائعات عنه فيا ترى من أين جئت بها؟"

-"أخوه أخبر أبي، ربّما لا تعلم لكن والدانا يعملان في المجال نفسه لذا أنا أعرفه من سنين طويلة، على أيّ أين ذهب؟ "

-رحيل: "إلى السّطح على ما أظنّ"

-هيثم: "السّطح! قد يرمي نفسه، توقّعا كلّ شيءٍ من مريض نفسي!"

-رد إياد مرتعبًا: "مستحيل، لا تمزح!"

-هيثم: "لو لم يفعلها من قبل لقلتُ إنّي أمزح"

-رحيل: "افعلا شيئا!"

-هيثم: "مستحيل، لا أهتمّ له!"

لم يردّ عليه إياد بل صعد إلى السّطح وهو يفكر عبر الدّرج أن..

'كيف؟، كيف؟، هل يُعقل أن يُقبل فتى في ريعان شبابه على الانتحار؟ لِمَ؟ هل نحن السّبب؟ ماذا لو انتحر فعلا!!'

ووصل للسّطح وأنفاسه تكاد تنقطع ليلمح ليون على شرفة السّطح بجانب السّياج يكاد يهوي للأسفل، كل ما فكر فيه إياد وقتها أنه على وشك رمي نفسه ليصرخ بقوة صادحًا عمّا بداخله:

-"توقّف! "

أغمض إياد عينيه بعد صرخته تلك، لم يتحمل المشهد وعيونه شرعت سلفًا تدمع، فقد شعر بحمل الذنب على كتفيه ثقيلا، إلى أن أحس بيدٍ تلامس كتفه بهدوء ومن ثمّة صوت مألوف يقول: "هل أنت بخير؟ "

رفع رأسه فإذا به يرى ليون واقفًا أمامه، فخُيّل له أنه شبح أو روحه قد عادت للانتقام ليصرخ كالمجنون:

-"لا، لا، أنا آسف، ليس ذنبي! لم أسخر لم أتكلّم صدّقني إنه هيثم!.. "

سأله ليون مستغربا: "ما الّذي تقوله؟"

مدّ إياد يده نحوه حتّى أحسّ أنّه يلمس ثيابه فاقتنع أنه ليس شبحًا، ليتنفس الصّعداء ثم ينهض ويعانقه بشدة، ما جعل ليون يقول متسائلًا بعدم فهم:

-"ما الّذي أصابك؟ متأكدٌ أنك بخير؟"

-"آ.. آ.. ظننتك...ظننتك ستموت!"

-"أموت؟، فهمت ما ظننتَه هيثم صحّ...ذلك الوسواس"

-إياد صارخًا: "لمَ صعدت إلى هناك؟"

-"عصفورة"

-"عصفورة؟ أيّ عصفورة؟ "

أشار ليون بعدها نحو العشّ الذي احتلّ مكانًا على السّياج، ليقول مفسّرًا:

-"الأمّ علِق جناحُها هناك وعجز صغارها عن مساعدتها"

-"كيف علمت أنّها هناك؟"

-"صعدتُ للسّطح ورأيتها"

-تغيّرت ملامحه ليقول: "مهلًا لِمَ صعدت؟! "

-"أردت استنشاق بعض الهواء ليس إلاّ"

-ردّ بشكّ: "آه، متأكّد.. قصدي لا تفهمني بالخطأ!"

ليون مفسّرًا: "أُعاني مشكلةً بالتّنفس، رئتاي ملوّثتان قليلًا ولهذا صعدت، ألم تلاحظ ازرقاق شفتاي عندما اقتربت منّي؟"

-إياد متفاجئًا: "لا أبدًا كنت مركّزًا على لون عيونك فقط، آسف أسأت الظنّ مجددًا"

-"لا عليك، سأنزل أودّ البحث عن الممرّضة لأجل العصفورة"

هبط الولدان معًا، تلك كانت فرصةً جيدةً ليعيد إياد التّفكير في من يكون ليون، وكيف هو تفكيره، أليس سهلا تقديم الأحكام المسبقة لمسلّماتٍ داخل دماغنا؟، والمشكلة لا نعلم حتّى لِمَ صارت مسلّماتٍ أساسًا!.

«تلك العصفورة قاومت الموت وهي ترى صغارها ينتظرونها، في حين أنّ أولئك الصّغار صرخوا بكلّ ما لديهم من أجلها، يا للكِ من عصفورةٍ محظوظة».

الفصل السادس: في عالمين مختلفين

تأتي فترةٌ ما تظنّ أنّك عرفت شيئًا جديدًا عن شخص جديدٍ بحياتك، لتكتشف لاحقًا أن ما عرفته ليس بالضرورة صحيحًا، للأسف نحن نسيء الظـّنّ ونفهم بالخطأ، ثم نحكم على الظّاهر قبل الباطن ونحكم على ذوات الآخرين قبل أن نعرف ذواتنا أساسًا! فإلى متى؟.

***

في قاعة الممرّضة قدّمت العاملة هناك العلاج للطائر معلّقة:

-"يا للعصفورة المسكينة! "

-ليون: "يا آنسة، هل يمكننا أن نحضر صغارها أيضًا؟ المكان خطير عليهم في الأعلى قد يسقط أحدهم أو يلتهمه طائرٌ ما"

-الممرضة: "أجل، ذلك ممكن، إذن سأحظِّر عُشًّا لهم"

-"شكرا"-إنّها إنسانة طيبةٌ كالأستاذ وكأنّ النّضوج يزيد القلب بياضا

-إياد: "ماذا عن الحصص؟، سيوبّخنا المعلّم"

-الممرّضة: "لا عليكما سأكلّمه"

-إياد: "شكرًا جزيلاً!"

ليون-: "ما دمنا هنا لنحضر الصّغار"

خرج الولدان يتمشيان إلى السّطح فأقدم إياد على الكلام:

-"نحن لم نتعارّف بشكلٍ صحيح"

-ليون: "ربّما"

-"تجيب بكلماتٍ موجزة هذا مستفزٌ على فكرة واسمع، أنا آسف"

-"هذه ثاني مرّة تعتذر فيها"

-"ليس باليد حيلةٌ فقط أحسّت بالذّنب، على أيٍّ أدركت أنّه لا يهمّ ما قاله هيثم"

-ليون: "حتّى لو كان صحيحًا؟"

-"لا أهتم! لن أكرّر نفس الخطأ ثلاث مرات!"

-ليون: "أنت تتحامل على نفسك كثيرًا لمَ لا تتجاهلني وحسب كالباقي دون بحثٍ بالقصّة"

-"أنا بخير، هذه طبيعتي وحسب "

-صمت ليون قليلًا ليقول بخُفوتٍ أشبه بالهمس: "أنت طيّبٌ أيضًا"

-ردّ إياد مستغربًا: "ها؟ لم أسمع"

-"لا عليك "

بعدها مباشرةً حلّت فترة صمتٍ ليقول إياد:

-"حقًا لا تجيد الحوار، قلت من قبل إنّك مصابٌ بتلوّث في رئتيك"

-"ذلك صحيح، كليهما على كل حال"

-"لمَ لا تجلس بجانب النافذة؟، اجلس خلفي سنتعرّف على بعضنا أكثر"

-ليون بابتسامةٍ خفيفة: "لِمَ لا.."

-"طيّب لِمَ لا تجيد الحوار؟"

-"قل إنّها طبيعتي، لكن من ناحيةٍ أخرى لم أخُض حديثًا طويلًا كهذا مع شخصٍ خارج إطاري الشّخصي من قبل"

-"لهذه الدرجة! أأنت معزول أم ماذا؟"

-"أظنّني من اختار تلك العزلة بنفسه، على كلٍّ وصلنا الفصل"

تركت إجابته بعض التساؤلات بذهن إياد ولكنه لم يسأله إذ كانا قد وصلا الصّف بالفعل بعد إيصالهما للصّغار، ولحسن الحظّ كانت قد أخبرت الممرّضة الأستاذ بالقصّة أثناء عودتهما للسّطح فسمح لهما بالدّخول هذه المرة، كما حرص ليون على تغيير مكانه بجانب هذا الشّخص، لقد سكنت نفسه بلطفه إنه كسب احترامه حقًّا.

***

على الجانب الآخر، أمام باب أحد الشّركات الفخمة وقف ليوهارد يعدّل ربطة عنقه فقالت ناتالي: "أهي صعبة لتلك الدرجة؟"

-ليوهارد: "إنّها تخنقني! "

-"آهٍ لا فائدة ترجى منك!"

اقتربت منه وبدأت تعدّل ربطة العنق بينما استمرّ هو بالتّحديق بها لتقول بخجل: "لِمَ تحدّق بي؟"

-"لا شيء، للتوّ لاحظت الجرح في طرف عينك"

-أجابت مبعدةً وجهها: "ذلك، لا تهتمّ له"

-ليوهارد مبتسمًا: "أريد أن أهتمّ"

في تلك اللّحظات بالضّبط أقبل نحوهما أحد رجال الأعمال وقال بنبرة مزاح:

-"هل قاطعت شيئا مهمّا؟"

-ليوهارد: "لا أبدًا، لحظة ما قصدك؟"

تجنّب الرجل سؤاله وبدلاً من الردّ قال بعد ضحكةٍ سخيفةٍ أطلقها:

-"أنت إيمانويل صحّ، يشرّفني العمل معك أتطلّع للكثير"

-ليوهارد: "وأنا أيضا سيّدي"

-الرّجل: "تفضّل بالدّخول"

تصافح الرّجلان رغم تأخّر المصافحة قليلًا، ثمّ لم يتردّد ليوهارد بمصافحة البوّاب الذي كان واقفًا أمام الباب الزجاجي الفخم لمقر الاجتماع بمحاذاة الرجل الغنيّ كاحترام منه للحارس الواقف أمامه

-الرجل: "من الغريب أن تفعل هذا، يبدو أنك تحبّ المصافحة! "-قالها بنوع من السّخرية

-ليوهارد: "رُبّيت على أن أعامِل البوّاب كما أعامل المدير"

-الرّجل: "ياللرّقيّ! لكن أخلاقك هذه لن تنفعك في العمل "

-"لا أوافقك الرّأي ولكن شكرًا على النصيحة"

عجبًا من هذا الرجل! أنه يلاحظ كل تفصيلٍ في ثيابه فهو شديد الحرص على رصد حركاته اللاإرادية، إنه جزءٌ من التقييم ليعرف إن كان هذا

الشاب كفؤًا أم لا، ليست تلك سوى البداية لسلسلة الاختبارات التي لا تنفك تنتهي حتى تبدأ من جديد..

***

في المدرسة، سألت رحيل عمّا حدث وحالما شرح لها إياد الموقف أحست هي الأخرى بالذّنب، إنّها صفةٌ يشترك فيها القريبان، بعدها عند فترة الغذاء التقى الثلاثة بكوثر الّتي لا تشاركهم الصف للأسف..

-رحيل: "ردينة، كيف حالك كيف هو صفّك؟ هل تعرّفتِ على صديقات جدد؟ لا تشعرين بالوحدة صحيح؟"

-إياد: "على مهلك أفزعتها! كأنّك تغنين الراب!"

-ردّت رحيل غاضبة: "لا علاقة لك! "

-ردينة: "يكفي جدالًا أنت وهي! رحيل دعكِ منه سأخبرك بكلّ شيء، آه أنت إيمانويل"-قالتها بعدما لاحظت ليون فردّ:

-"يمكنك مناداتي ليون"

-"إذن نادني ردينة"

-رحيل: "عفوًا، كيف تعرفان بعضكما؟"

-ردينة: "التقيته في الصّباح"

-"أجل أنقذتني من الموت"-لم تنقذ حياته وإنّما أنقذته من الموت ليكتب له أيام جديدة..

-إياد: "حقًّا؟ احكيا لنا"

-ردينة: "أصابه الدّوار عندما كان على وشك قطع الطّريق"

-إياد: "مهلًا، ماذا لو عاد الدّوار عندما كنّا على السّطح؟ كنت تعاني الصّداع بالفعل! يا متهوّر!"

-ليون مبرّرًا: "كنت أنقذ العصفورة وحسب"

-ردينة: "أيّ عصفورة؟ "

-رحيل: "تعالوا لنذهب ونتناول غدائنا وهناك نفهم التّفاصيل، كم سيكون رائعًا لو نتعرّف عليك أكثر يا ليون، سنناديك باسمك الأوّل وبالمقابل يمكنك فعل المثل"

-إياد: "موافق"

رغم أنّه تعرّف عليهم للتّوّ، إلاّ أنّ أصواتهم غطّت الهمسات المنتشرة عبر الرّواق، ذلك جعله يشعر بالأمان، صحيحٌ أنّهم لم يفهموا المواقف السّابقة ففي كليهما حاول وضع حدٍّ لحياته، لكن الأمر تغيّر بسبب عصافير من البشر!

كان هذا أحد أسراره التي يُحب أن يحتفظ بها لنفسه، بعدها مرّ اليوم جميلًا ومريحًا لقلبه، ففي تلك المدرسة تعرّف على إياد، ذاك الفتى شديد الانفعال في كلّ المواقف، إنّه من النّوع الّذي يحكم بقلبه بتحيّزٍ تامّ، عدا أن كلاهما يتزلّج، ليس تزلّجًا على الجليد أو ما شابه بل بألواح التزلّج على الشّوارع، صحيحٌ أنها رياضةٌ نادرةٌ نوعًا ما، إلاّ أنّها تلقى رواجًا في آخر السّنوات لتأثّر شبابنا بالأمريكيين في العصر الحديث وهذه النُّدرة هو ما جعلهما يتقربان أكثر، كما أن ردينة من عشاق الكتب الذين يزعجهم منظر الورق الأبيض فيسرعون لملئه بشتّى الكلمات، وذاك عاملٌ مشتركٌ تقريبًا بينها

وبين ليون، فالكتابة هي أحد وسائل تفريغ المشاعر السّلبية التي نصحه بها الطبيب، لكن هو لم يخبرهم بذلك. في الواقع لم يخبرهم بالكثير، تلك طبيعته على أيّ حالٍ فهو كتومٌ عاشقٌ للخصوصية فحسب.

مرّت الأيّام السّبع تليها سبعٌ أُخر، وفي كلّ مرّة كان يعود فيها لذلك القصر يجد ذاك الشّبح مهيمنًا عليه، ذاك المسمّى بالفراغ...

أمّا عن ليوهارد، فهو لم يرَ ليون منذ أسبوعين! ففي كل مرّةٍ يدخل فيها يكون هو في سابع نومة، وعلى الصباح بينما هو في أوائل حصصه يكون الأخ الأكبر يغطّ في نومه، ذلك لتتضاد جدولهما الزمني فليوهارد مشغولٌ بكل أعماله وما زاده الضغط المسلط عليه من كل حدبٍ وصوب، المسؤولية التي أوكلت إليه كانت أكبر من طاقته لكنه حملها دون هوان، ذلك ما يُعجب ناتالي فيه، عناده، وإصراره، ومحاربته لذاته من أجل إكمال ما عليه، لكنّه أحيانا يخلط بين ما يجب عليه وما يريد فعله، ويهمل بعض الأشياء فيلجأ إلى حلها كما لو أنها أوراق مكتبية، تلك بالضّبط حالته مع ليون فهو لم يعرف ما عليه فعله فحاول التخلص من الحمل ولمّا عجز قرّر تجاهله وحسب معتقدًا أنه بهذا قد قام بواجبه اتّجاهه، وكأنه يعامله كورقةٍ مكتبية، ومع شعور ليون الأساسي بأنه عبءٌ عليه، توسّعت الفجوة بينهما حتى بات مَلؤها شبه مستحيل ما لم يتحرّك أحد الطرفين قبل فوات الأوان.

«مجرّد المرور على ذلك الشارع يذكّرني بتلك اللحظة، ماذا لو كنت أكثر شجاعة؟ لم أكن لألتقي بهؤلاء البشر صح؟ لقد ظهروا فجأةً في حين هناك

بشر آخرون اختفوا عند ظهور هؤلاء، إذ يبدو أنه وقَّع على كل الأوراق! أو ربما هو مشغول وحسب، مع أنّي أشك في أنه مهتمٌ أساسًا على أيٍّ ما زلت في مكاني، ماذا سأقول عن نفسي غدا؟ هل سيروننني كالبقية لو عرفوا بتلك الأسرار؟ هل سأفقدهم كما فقدتكما؟ لا أريد!

يحقّ لهم على كلّ حالٍ أن يتبعوا القطيع بهذه الحالة، على أيٍّ يوم جديد!

وربما يكون الأخير.. فأنا، أنا.. من الصّعب الإشارة لنفسي هكذا ببساطة لأنّي لا أعرف نفسي! كلّ ذلك حدث هناك حيث لم يفصل بيني وبين الموت سوى خطواتٍ قليلة لكنه على كلٍّ كان شعورًا جميلًا كذكرى جميلة.. ذكراكِ أفتقدكِ، أفتقدكَ أيضًا بحثت عنك فيه لكنّي لم أجدك».

مازال يخاطب نفسه في الطّريق حتى سقط أرضًا مغشيًّا عليه، ليتجمهر النّاس حوله ويستدعوا سيارة الإسعاف، لقد فقد وعيه مجدّدا لكن هذه المرّة هناك العديد من الشّهود.

الفصل السّابع: الماضي

الاكتئاب هو أحد أكثر أمراض النفس شيوعًا، وخصوصًا أنّه قد يصيب أيّ شخصٍ نتيجةً لصدمة، أو تكدّس المشاعر المكتومة في غالب الأحيان، وفي مراحل متقدمةٍ من المرض يفقد الإنسان وعيه بذاته فيحسّ أنّه عبءٌ على الآخرين، ما يدفعه لنكران ذاته وطرح السؤال المحوري.. من أنا؟

كما ينتج عنه اضطرابات في النوم والطعام ما يضعف جسم المصاب ويفقده شغفه ورغبته بالحياة، مما يزيد من الأفكار السوداوية في رأسه والتي مع الأسف قد تنتهي بتجسيدها على أرض الواقع، إنها ظاهرة الانتحار.

***

غارقٌ في ظلامٍ بدا أبديًّا، غير قادرٍ حتّى على فتح عينيه، إنّه واعٍ لكنّه مشلول، فهو يحسّ بثقل جهاز التّنفس على الجانب السّفلي من وجهه يغطّي فمه ويمدّه بكميات منتظمةٍ من الأكسجين، ها قد فتح عينيه بعد مدّةٍ من الزّمن تفوق السّاعة، محاولاً توضيح الصّورة الضّبابية أمامه، ليخضع لضعف جسده فهو ليس فاقدًا للوعي الآن، هو وحسب يغفو في نومٍ عميق، وتتوارى على ذهنه رؤية أو ربّما كانت ذكرى لذلك اليوم المشؤوم..

قبل شهرٍ تقريبًا، كان مستلقيًا على هذا الفراش، وأنبوب التغذية لا يزال موصولاً بجسده الذي أمسى ضعيفًا شاحبًا، لطالما عاش في هذا القصر متنعِّمًا كما تكون حياة الأغنياء لكن كلّ ذلك لم يعد ظاهرًا عليه.

أوّل ذكرى في رأسه هو مشهدٌ للرّجل الذي سمّاه 'أبي' يحمله من الحطام الشّبيه بالحطام الذي انتشله هو منه بعد عشر سنوات..

ففي ذلك اليوم قررا الخروج معًا، فإن السّيد 'أوليفر' كان طريح الفراش منذ مدّة بعد وفاة زوجته المأساوي، بينما يرافقه ليون في كلّ ساعةٍ من اليوم مبيّنًا قلقه الصّادق اتّجاه صحّته.

-أوليفر: "أنت قلقٌ جدًّا يا بنيّ، لِمَ لا تفعل شيئًا آخرًا بدلًا من مراقبتي؟ "

-"لا أستطيع، دعني أبقى بجانبك"

-"شكرًا لك، ولكن يا بنيّ أوَلست وحيدًا؟ أليس لك شخص آخر تلتهي به غيري؟"

-"وحيد، شخص آخر.. لا يهمّني ذلك"

بصوتٍ حنونٍ أردف:

-"أنا يهمّني، لن أدوم لك للأبد"

أخفض ليون رأسه قليلاً بعد أن عجز عن الرّدّ، فإنّ مجرّد التّفكير في أنّهما قد يبتعدان عن بعضهما يومًا ما يفزعه، خصوصًا بعد هذا الشّهر الأخير الذي تدهورت فيه صحّته بتلك السّرعة ولو أنّ هذا عادي لرجل يكاد يبلغ السّتّين من عمره، لكن هذا العجوز يمثّل الدّنيا لهذا الصّبيّ، هو وحده فهو منعزل..

-الأب: "آه، ماذا أفعل بك؟ كم أنّك عنيد"

-ردّ: "لا شيء، فقط ارتح"

-"لكنّي أخبرتك أنّي بخير"

-"لن أقتنع حتّى أرى ذلك بعيني"

-"حسنًا تعال سنخرج وسأثبت لك ذلك، وأيضًا أريد أن أكلّمك بموضوع خاص"

-"حاضر"

بعد أن تجهّزا ركبا السّيّارة معًا، وقد فضّل السّيد أوليفر أن يتولّى السّياقة بنفسه لعلّه ينقص من قلق هذا الصّبي الذي صار جزءً لا يتجزأ من كبده، حتى صار سبب سعادته في هذا العالم، فهو من يدفعه للنهوض صباحًا وكما كان الابن غاليًا على أبيه، كذلك كان الأب لابنه فقد كان حرفيًا الشخص الوحيد الذي يكمّله..

راح يحدّق به باستمرار فهو يذكّره بولده الأكبر الّذي هجر البلاد بحثًا عن مستقبله، ورغم أنّه لم يكن مستاءً من ابنه البِكر، غير أنّه لا يستطيع نكران كم أنّ غيابه المستمرّ يكسره، ذلك الكسر الّذي أصلحه ليون، تلك هي نوع الرّوابط الّتي تجمع بينهما، رابطة أب وابنٍ جعل كلّ منهما الآخر قشّة نجاته، وسبب حياته وعلاجًا لنسيان جرحٍ غائر بعد مغادرتها.. من كانت الأم والزوجة.

نطق ليون بعد ملاحظته لنظراته: "هل من خطبٍ بي؟"

-"لا، فقط تذكّرت أوّل مرّة التقيتك فيها"

-"ذلك.. قلت لي أنّك انتشلتني من حطام سيّارةٍ بعد حادث"

-"ذلك صحيح، ولم يتمكّنوا من التّعرف على بقيّة الرّكّاب بسبب احتراق السيارة، في حين نجوت أنت بمعجزة لتواجدك بمؤخرة السيارة"

-ردّ ليون متحاشيًا الكلام: "لا يهمّ ذلك "

-الأب منفعلًا: "بل يهمّ! ألا تريد أن تعرف من أنت؟"

-"من أنا؟ أنا ابنك وحسب، لا أريد التفكير في غير ذلك"

-"ليون لا تهرب من واقعك..."

قال جملته تلك ليتوالى بعدها عليه سعالٌ عميقٌ ما جعل ليون يقول مرتاعًا:

-"فلنعد! أنت لست بخير"

-الأب قاطعًا سعاله: "توقّف عن القلق بشأني، فكّر في نفسك أنت تهمل نفسك! إلى أين تريد أن تصل وأنت بلا حلمٍ أو شغف؟ كلّ ما يهمك راحتي أنا، لا تنسَ أنّها حياتك! "

- ردّ ليون مدافعًا عن نفسه: "أنا لا أهمل نفسي! "

-"متى كانت آخر مرّة خرجت فيها؟ إنّك لا تحدّث أحداً غير أهل القصر، حتى أنك أصررت على التعلم بالبيت ورفضت الاندماج مع من هم بسنّك، عدا هيثم أنت لا تعرف أحدًا إطلاقًا! أعترف أنّك مطيعٌ فعلًا، لكن يجب أن تكون لك رغباتك الخاصة، في النهاية أنت تكبر وحان الوقت لتستقل"

-جاوبه بحزنٍ غريب: "كلّ ما أريده هو أن تبقى بجانبي، لا تغادرني كما فعلت أمّي وسأكون بخير"

-"أنا لن أبقى للأبد! "

-ليون: "لا يهمّ، دعك منّي فكّر في نفسك فحسب"

-أوليفر: "أنا عشت حياتي وانتهيت، أمّا أنت فلا تزال مقبلًا على الحياة"

-ليون صارخًا: "لا أريد الحياة!"

-ردّ الأب بتعجّب: "عفوًا؟!"

-"الحياة وحيدًا ليس لها معنى.. بعد كل ما تسببتُ به، أبي! أبي!"

كان أوليفر قد أصيب بنوبة سعالٍ شديدةٍ جعلته يختنق وقد ضاق صدره، لم يكن يسمع وقتها سوى صرخات ليون يترجّاه أن ينهض..

ثمّ حلّ الصّمت فجأة، كلّ الأصوات اختفت من على الوجود، فراغ... كلّ شيءٍ عالق في ثانيةٍ واحدة، تجمّد الوقت بعينيه اللّتين لم تعودا تبصران سوى الظّلام، ظلامٌ حالكٌ يلتهمه ببطء، ويسحبه نحوه في حين أن أنفاسه تختنق، وأنامله ترتجف، حتى رموش عينيه ذبلت كأنه يحتضر، لكن الموت كان أرحم له من ذلك المنظر..

فتح عيناه ببطءٍ ليستوعب الألم المنبعث من كامل أنحاء جسده وخصوصًا كتفه الأيمن، بالكاد كان يرى لكنّه لمح ما ترسّخ في ذهنه منذ ذلك الحين..

هو من منحه الحياة، الحب، الحنان، من لم يتركه وحيدًا، الوحيد الذي يحدّثه بكل راحةٍ دون أيّ هواجس، من أنساه ما جرى قبل مدةٍ قصيرة، ذلك هو ذاته أبوه الذي يجلس على الكرسي وجدعه موجّهٌ نحو الأعلى، من الواضح أنّ جزءً من الباب قد شقّ صدره، بينما ينزل الدم غزيرًا من على رأسه..

كان ليون مرتعبًا، حزينًا، مصدوماً، ارتفع الأدرينالين في جسده ليضغط عليه بآخر نفس وهو يحرّك أباه لعلّه يسعفه، ثم سحب جسده البارد بهدوءٍ وهو يشعر بأنفاسه الضئيلة ما زالت دافئةً في حين يحتضر..

-"لا تمت!.. أرجوك! افق، ابق معي أرجوك! ليس أنت أيضًا، لا أبي.. "

نزلت الدّموع من على عينيه بهدوءٍ باردةً ممتزجةً بالدم، وعيناه تحدّقان بيأسٍ في يده التي غرقت في دم أبيه النابع من الشّقّ على صدره، لقد نفذت طاقته لكنّه ضغط على نفسه باستمرار حاول وحاول وحاول، للرمق الأخير

-"فقط لا تمت! أرجوك.. ليس أنت أيضًا.. أبي".

ابتعد قليلًا برفقته عن مكان الحادث ليحس بألمٍ شديد في كل أنحاء جسمه وكأن جسده يدهس، لقد نفذت طاقته وتوقّف ضخّ الدّم لفترةٍ بجسمه ما جعله يسقط واعيًا بالكاد مستلقيًا بين الحياة والموت، للتّوّ لاحظ انقطاع أنفاس والده، هو لم يستطع إنقاذه، لم يقدر على ردّ جميله حتى بعد عشر سنوات، لقد فقده لا وبل هو متيقنٌ أنّه السبب، يقتله الذنب ويحترق فؤاده، في تلك اللحظة تذكّر ليوهارد ترى هل سيلومه؟ كيف لا وهو ذاته يلوم نفسه.

«أنا آسف ما كان عليّ أن أدفعك للقدوم، إنك محقٌّ تمامًا أنا وحيد، مهمل وعديم الاهتمام! ليتك لم تلتق شخصا مثلي، مجرد نكرة! لا يضيف ولا ينقص! هل أستحق معاملتك الطيبة؟

أنا.. أنا من؟.. أرجوك أجبني ألست من سألني إن كنت أعرف؟»

الوقود بجانبه يحترق محرّرًا سمومًا في الهواء تتسلّل عبر رئتيه هو لا يزال يتنفس، ويتمنّى لو لم يكن يفعل، ببساطة كل شيء انتهى، كان يعيش من أجل أن يؤنس ذلك العجوز وزوجته، لطالما عدّه سببا مقنعًا للحياة دون طموحٍ أو آفاقٍ سوى إسعاد هذا الرجل إلى آخر لحظاته لكنّه فشل، أو هذا ما يراه..

إنّه يلقي الذّنب على نفسه لدفعه للخروج، وكونه مخيّبًا له، ربّما لم يكن كذلك حقًا لكن هذا ما راوده فهو لم يتجاوز كلام والده الأخير معه، ما أغرق فؤاده في فراغٍ لا نهائيّ وعذّب روحه ليجد نفسه بلا هدف أو طريق، كلّ ما حوله مجرّد فراغ..

حتّى عندما يحدّق في المرآة لا يرى أحدًا..

هل هو وحده موجود؟ أم كلّ شيء موجودٌ إلاّ هو؟ لا يعلم ببساطة هو جاهلٌ لذاته، مجحد وكارهٌ شديدٌ لها فوق ذلك، يحتاج أملاً جديدًا، إنسانًا لطالما سمع عنه الكثير وتمنّى لو يلقاه وينادیه بأخي.

الفصل الثامن: جدال

أسير الماضي سجينٌ لآلامه..

نام ليون لمدةٍ طويلة، لم يحظَ بتلك الراحة منذ زمنٍ ولكنه نالها بفضل ذلك المُسكّن الّذي حُقن به بسبب اضطراب نفسه الّذي أساء لصحّته، لولا تلك الكوابيس بين الفينة والأخرى لاكتملت راحته، لكنه بطريقة ما كان سعيدًا لرؤيته أباه، ولو في ذكرياته وبأبشع شكلٍ ممكن.

أقبلت إحدى الممرّضات عليه قائلةً: "آه استيقظت"

أحسّ أنّه سؤالٌ غبيٌّ مع ذلك أجابها ب: "نعم"

-الممرّضة: "لقد أغمي عليك في الطّريق فأحضرتك سيارة الإسعاف، أتريد الاتّصال بأيّ أحد؟"

فكّر قليلًا في جملتها الأخيرة ثم أردف: "أجل، سأتّصل.."

حمل هاتفه وأوّل ما لاحظه بعض الشّقوق الّتي غزت شاشته هي إشعاراتً لأكثر من ثلاثين اتّصالاً! كلّها من عند إياد، ذلك أشعره بفرحةٍ عارمةٍ فمن يدري قد يكون سبب عيش جديد له، اتّصل بعدها بجورية التي جاءت مسرعةً برفقة زوجها لإخراجه من المشفى، و ما إن أنهى اتّصاله حتّى انطفأ الهاتف فلم يكن بالإمكان أن يشتغل مرة أخرى.

-جورية: "يا إلاهي، سعيدةٌ أنّك بخيرٍ الحمد لله"

نطق محمد زوج جورية سائلاً ليون: "هل اتّصلت بليوهارد؟"

-"لا، ولِمَ قد أفعل؟ "

-جورية: "فلتمنحه فرصة"

-ليون: "مستحيل"

-محمّد: "لِمَ تكرهه لتلك الدّرجة؟ هو ليس سيّئًا"

-"أعرف قدْري عنده فحسب"

-جورية: "كيف تعرف؟!"

-'ليون: "سمعته وحسب، ويا ليتني لم أسمع"

-"ماذا سمعت؟ "

-"لا يهمّ.. يمكنني أن أتناسى لكنّي لن أنسَى"

-جورية: "آه، ماذا أفعل بك"

-"لا شيء، دعيني وحسب"

محمّد هو زوج جورية، التقاها منذ بدأ العمل في هذا القصر فتزوّجا عن حبّ، عاشت جورية في يتمٍ وفقرٍ الأمر الذي دفعها للعمل والبحث عن ملجأ، فلم يبخل عليها أوليفر بأيّ شيءٍ لذلك بادلته الوفاء لتكون رئيسة الخدم لسنواتٍ طويلة، هي اليوم زوجٌ وأمٌّ لولدين مقبلين على النّجاح والتّخرج بتفوّقٍ بفضل جهود والديهما في توفير كلّ مستلزمات الدّراسة،

وكون جورية عاشت وحيدةً فهي وبصفةٍ خاصةٍ تحنّ وربّما تُشفق على ليون كونه عاش ظروفًا مشابهة لها، فكلاهما عاش اليتم في بدايات تفتّحه.

***

على باب القصر الرّئيسي هَمَّ ليون بالدّخول ليتفاجأ بأخيه الأكبر -ولو أنّه لا يعتبره أخا في صميمه- خارجًا في الوقت نفسه ولذلك قد صدمه بقوةٍ جعلته يسقط أرضًا

-ليوهارد: "يا إلاهي! آسف لم أرك!"

مدّ يده نحوه ليساعده على النّهوض فردّ ليون : "لا عليك"

ردّ ببرودٍ شديدٍ متحاشيًا اتّصال العيون كالعادة، هو بالكاد يحدّق به عندما يتواجهان، لكنّه أمسك يده محاولاً النّهوض، فتفاءل ليوهارد قليلًا وسأله: "ألم تدرس؟ "

-"لا، دعني أدخل.. لو سمحت"

-"تفضّل"-عكس ليوهارد قالها بودٍّ وهو فرحٌ فقد تمكّن من رؤيته بعد مدّة أسبوعين، هو لا يكرهه على أيّة حال، بينما صعِد ليون مسرعًا لغرفته وأغلق الباب بقوةٍ بينما أنفاسه تكاد تنقطع فقد عاد ضيّقٌ صدرُه حتّى كاد يُغمى عليه!

ليس السّبب أنّه التقى بليوهارد بل لأنّه التقى بالابن البيولوجي لأبيه، والّذي كان طبق الأصل عنه وخصوصًا تلك العيون الخضراء الزمردية، فهذا الشاب اليافع ذكّره بتلك الجثّة المستلقية بجانبه والتي لم يدرك وقتها أنّها جثة!

الحقيقة أنه مات بسبب تلك النوبة وليس بسبب الحادث أي أنّ محاولاته لإسعافه كانت بلا جدوى، بينما حاول إنقاذ روحه كان يجرّ جثّته! مجرّد التفكير في ذلك يجلب القشعريرة له، ففي تلك اللّحظة شعر بكل شيء بالتفصيل ويا له من شعورٍ فضيع!..

لم يستطع ليوهارد الخروج بعد أن رآه على تلك الحال، وحالما عرف بما جرى من محمدٍ وكيف أغمي عليه بمنتصف الطّريق ألغى كل ما لديه اليوم لكي يتفرّغ لأخيه، فمازال يعدُّه كذلك رغم كلماته الجارحة...

اقترب بالفعل من غرفته ولاحظ أنّها مقفلةٌ من الداخل، لسببٍ ما فزع بشدة، لربّما لخوفه أن يرتكب شيئًا بحقّ نفسه، فتحرّك دون تفكيرٍ يطرق الباب إلى أن كسره بسرعة حتّى أنّه لم يعطِ ليون فرصةً للاستيعاب فبقي يحدّق به بصدمة، كان من الواضح أنّه أفزعه وهو لايزال يسعل بهدوءٍ فالاختناق لم يزُل لكنّه مُزج بالصدمة

-"ما الّذي جرى؟"-سأله ليون بينما يرمي نظراته إلى شظايا الباب المكسور المتبعثرة في الغرفة، لم يعرف ليوهارد كيف يجيبه لكنّه ارتجل بغباء:

-"أردت كسر الباب!"

-رفع ليون حاجبيه كردّ فعلٍ على إجابته ليقول: "حقًا!، لماذا؟ "

-"آم.. لا شأن لك! "

-ليون: "حسنًا هو بيتك على كلّ حال"

-صرخ ليوهارد: "لم أقصد ذلك المعنى! لا تفهمني خطئًا!"

-"آسف"

-"لِمَ تعتذر؟ "

-ليون: "لأنّي أخطأت كما أنّك تصرخ، ألم تلاحظ؟ "

-"لا أقصد الصّراخ عليك.. آهٍ لِمَ تفهمني بشكل خاطئ؟ "

-ليون: "قلتَ إنّك أردت كسر الباب.. ماذا من المفترض.. أن أردّ؟..."

توالت اختناقاتٌ طفيفةٌ بين كلماته الأخيرة فلا تزال تلك الغصّة في حلقه

-ليوهارد: "هل أنت بخير، سؤالٌ غبي!"

سأل وأجاب على نفسه ثمّ تقدّم نحوه ووضع يده على جبينه ليتفحّص حرارته، ذلك فاجأ ليون من الواضح أنّه من المستحيل توقّع حركاته!

-ليون" ليس لدي حمّى"

-"اه، جيّد"

عمَت لحظات صمت بقي فيها ليون خافضا رأسه بينما ليوهارد يخاطب أفكاره، ثم نطق: "لِمَ تتحاشاني؟"

-أجاب ليون بعدم فهم: "أتحاشاك؟ "

-"تبعد عيونك عنّي وتخفض رأسك حينما أتكلّم، أهذا نوع من الأدب؟ "

قال بنبرةٍ ممزوجةٍ بضحكةٍ خفيفة:

-"أخبروني أنّي سيّءٌ بالحوار، لكن يمكنك أن تعُدّه نوعًا من الانصياع!"

تفاجأ ليوهارد من ردّه، فليون يحمل فكرة عن أن طبيعة علاقتهما كالحاكم والمحكوم، هو لم يُرِد ذلك بل أراد أن يكونوا عائلة..

-ليوهارد بحزن: "أحاول أن أكون أخًا لك"

نظر إليه مباشرةً هذه المرّة ليدخله في دوّامة عينيه التي تبدو كهاوية لا رجعة منها، ثم ردّ ببرود: "شكرًا لا أريد"

حطّمت تلك الجملة ليوهارد تمامًا ليقول: "ظننتنا إخوة"

بنبرةٍ ساخرةٍ وابتسامةٍ مزيّفةٍ قال وقد ركّز عيناه صوبه:

-"أنا أيضًا ظننت ذلك، ويا للخيبة!"

استشاط ليوهارد غضبًا فمن الواضح أنّ ليون جدّ بارِع في الاستفزاز ويبدو أنّه يتعمّد إظهار أسوء ما فيه: "لِمَ مثلاً؟ لِمَ تكرهني!"

خرجت آخر جملة من صميم قلبه ليردّ الآخر منفعلاً قليلاً:

-"يمكنك أن تتظاهر باللطف لكي تبيّض سمعتك أمام الناس لكنّك لا تعرفني، أوَلست من نسي اسمي أساسًا عند لقائنا؟! في الجنازة كان الكلّ يقول 'ستحمل وزر هذا الإنسان وأنت لا تعرفه حتى' ومعظم من كان هناك اقترح أن تلقي بي في الشارع أو ترسلني للدّراسة خارجًا وقد وافقتهم الرّأي بكل صراحة! بل وناقشتهم بكل جدّية، من قال لك إنّه عليك تربيتي مثلًا؟ لست عملاً تسيّره كما تريد، ولا حِملاً تتأفّف منه أمام من هبّ ودَبّ! لم أطلب اهتمامك ولا شفقتك"

-"أنا لم أطبّق ذلك، لم أعارض أبدًا على دخولك مدرسةً عموميةً بينما كان بإمكاني إدراجك بأخرى خاصّةٍ بعيدة عنّي، كما أنّي وافقتهم لكي أساير كلامهم، أنت لا تفهم لغة المديح! ولا تفهم أنّ جُلّها أكاذيب! "

-ليون بحسرة: "بغضّ النّظر عن اللّغة، بنيت عليك آمالاً كثيرة، صدّقني كنت مستعدًّا لمناداتك بأخي من البداية حتّى قبل وفاة والدي، لكن في اللحظة التي اعتمدت عليك ضربت آمالي عرض الحائط! كيف من المفترض أن أصدّق مشاعرك ثمّ وفوق ذلك تتشكّى عليّ يبدو للجميع أنّي أنا المعقد حتّى إنّك قلت هذا للشّخص الخطأ وبسببك تجنّبني الجميع"

-ردّ مدافعًا عن نفسه: "تعرف أنّه مجرّد كلام"

-"كلامٌ جارح! موافقتك عليه تكفي لست مضطرًّا للتّفكير بي، افعل ما يريدونه سيكون ذلك طريقًا سهلاً لك! متأكّد أنّ هناك جانبا يطلب منك فعل ذلك بينما يبقيني ضميرك جالسًا هنا، افهم لا أريد شفقتك! ولا أريد العيش على قلبك! توقف عن لعب دور الأخ الحنون أمام الجميع وجعلي المريض النّفسي المكتئب أمام العدو والصديق!"

-ليوهارد: "أنت تعقّد الموضوع! "

-"حقًّا؟ اعذرني فقد أرهقتك! "

-"تعلم أنّك مستفزّ! "

-"آسف، أفضل؟ "

تقدّم ليوهارد نحوه بسرعةٍ فكلامه أثار صراعًا داخله، بالفعل كان يمكنه القيام بذلك، لكنّه لم يفعله هو واجبه على كلّ حال، ما أبقاه هو وصيّة والده لكنّ ضميره في ذات الوقت يؤنّبه في الوقت نفسه ليون يثير غيضه لأقصى الحدود! بقي لبرهةٍ من الزّمن واقفا لكنّه استرجع هدوءه وخرج دون قول أيّ كلمة، كان ذلك اللّقاء الثّاني والخوف أن يكون الأخير..

«أعقّد الموضوع؟ ليس ذنبي إن تحطّمت بسببك، للأسف أنا من عظّمتك في رأسي وحلمت بك كأخٍ وصديقٍ وقدوة!

لكنّك محقّ ربّما حمّلتك أكثر ممّا تقدر عليه.. أنا آسف حقًّا يمكنني تقبُّلُ كرهك لي فبالنهاية أنا مذنبٌ بما حصل قبلاً لكن إن كنت تكرهني فلا تنافق! فقط قل ذلك صدّقني سأقبله، حاليًا اِنس أمري وحسب فهو بالفعل ليس ذنبك، فلتكرهني إن أردت لا بأس بل يحقّ لك، لم أَعُد أبالِي على الأقلّ لن تحزن إذا رحلت هذا أفضل لكلينا صحيح؟ من أنا لتحزن عليه؟ افعل ما تريد لا أريد أن يفكّر بي أحد، أريد الرّحيل بصمتٍ كما جئت بصمت، هل هذا ممكنٌ حتّى؟»

الفصل التّاسع: فرصة

التّوتر يعُمّ الأجواء، فبعد ذلك الحديث الحادّ لم يلتقيا ولم يريدا ذلك، بالطّبع روى ليوهارد ما جرى بالتّفصيل لناتالي حتّى إنّه أخبرها عن ذلك الجانب منه الذي يشعره بالذنب، فكّر طويلًا بتلك اللّحظات حينما حدّثه أولئك الرّجال ذوي المناصب العالية ووافقهم في كلّ كلمةٍ ولو أنّه لم ينفّذها، كان ذلك في الجنازة وفي المشفى، كانت حقًّا قسوةً منه أن وافقهم على كلامهم دون أيّ اعتراضٍ أمامه وفي أشدّ لحظاته حزنًا أمامه مباشرةً وبالوجه الصّريح، حينما تقف الرّسميات حاجزًا أمام الصّدق تصير لغة المديح سيّدة الكلام، في ذلك الوقت كان يوافق دون استماعٍ حتّى، لكنّه فعلَ، أضِف أنّه بالكاد يتذكّر ملامح ليون الذي لم يره منذ سنين، وهو الآن معه في البيت نفسه، لذا ليوهارد ليس غاضبًا منه ولا يكرهه لكنّه فقط متفاجئٌ من صراحته! في حين أنّ أكثر ما يقلقه هو وصوله لتلك الدرجة ما يعني أنّه في الهاوية حقًّا، هو يريد أن يكون أخًا كبيرًا له، لكن دون أن يُحسّسَه بأنّه يُشفق عليه.

***

في ذلك الصّباح وعلى تلك الطّاولة، كان الأصغر وككل صباح يشاجر صحنه وكلّما حاول الاستسلام لاحظ شرارات موجّهة نحوه، ومِمَّن قد تكون غيرها جورية، في حين جلوس ليوهارد بالجانب المقابل شاردًا هو الآخر فنطقت جورية: "سيد ليوهارد تفضّل بالبدء بالطعام"

-"آه، سأفعل"

أردفت بنبرةٍ حازمة: "تفضّل"

ليوهارد معيدًا بعدم اهتمام: "أجل.. سأفعل"

-"يمكنك البدء"-قالت بنبرةٍ حادّة

-ليوهارد بعجب وبعض من الخوف: "حاضر!"

ذلك غريب نوعًا ما، جورية شديدة اللّباقة مع أبناء السّيد أوليفر وخصوصًا ليوهارد، ولكنّها يمكن أن تكون قاسية وتوجّه له التّحذيرات والتّوجيهات كأنّه أحد أولادها، خلال ذلك كان ليون ينظر لليوهارد تارةً ولجورية تارةً أخرى فبدى وكأنّه يضحك مع نفسه، جورية ضاربة بيدها على الطّاولة:

-"تفضّلا!"

بالكاد كتم ليون ضحكته فهو نوعًا ما يجد متعة بإغضابها، أكملت هي قائلة:

-"هل إغضابي ممتعٌ لتلك الدّرجة ليون؟"

-ليون: "الصّراحة نعم!"-ضربته على رأسه ضربةً خفيفةً بالملعقة بيدها مرافقةً إيّاها بنظرةٍ حادّةٍ فردّ ليون: "آسف، لكن حقًّا تعابيرك الغاضبة جميلة! الغاضبة الحسناء! "

-جورية: "ماذا؟!، هل توافقه يا ليوهارد؟ "

-ليوهارد: "ها؟، آ.. ربّما "

-ليون: "على كلٍّ، عليّ الذّهاب للمدرسة"

-جورية: "بالكاد أكلت! أيضًا أعطِ ليوهارد رقم هاتفك"

-"هو محطّمٌ أصلًا"

-ليوهارد: "كان عليك إخباري، اصبر عليّ لمدّة حتى أتفرّغ وسأشتري لك واحدًا"

-ليون: "حسنًا، لكن سآتي معك"

-ليوهارد مستفسرًا: "أتفضل نوعًا ما من الهواتف؟ لأنّي أنوي إحضار واحدٍ من شركتنا"

-"ليس الأمر كذلك، فقط تلك فرصة.. لا يهمّ وداعًا"

فرصة؟ بالفعل الوضع حاليًا يزعجه فهذا التوتر لا ينقصه، وأيضًا ليون ليس من النوع الحقود، إفصاحه عمّا في قلبه هو تصريحٌ غير مباشرٍ منه بأنّه قادرٌ على التعايش مع وضعه الجديد حاله حال كل مصابٍ بالاكتئاب، و من ثمة البداية من جديد وكأن الفجر قد بزغ بعد ليلٍ طويل، ذلك أسعد ليوهارد في صميمه خصوصًا بعد أن قالت له جورية هذا الكلام، ممّا جعله ينهي بسرعة طعامه ويتحمّس ويحاول باستماتة انتهاز الفرصة، بل وبشأن أي شيءٍ بوسعه إصلاح هذا التوتر الخانق لكل الأطراف ففي النهاية ليس ليون الوحيد الذي يرعبه ذلك الفراغ، وعلى كليهما التعاون للقضاء على هذا الوحش المفترس!.

قبل بداية الحصة، وبمجرد دخول ليون للصف أقبل عليه إياد مسرعًا:

-"ها أنت! اتصلتُ بك مليون مرة! ماذا جرى لك!؟ "

-رحيل: "على مهلك"

-" للمرة الألف، لا علاقة لكِ! "

-ليون: "رأيت موقفًا كهذا من قبل، تحطّم هاتفي قبل أن أتّصل بك آسف فقد أقلقتك"

-"لا عليك، حسنا لكن ماذا جرى لك ليتحطم؟ "

-"أُغمي علي في الطريق"

-صرخ كلاهما في نفس الوقت حتى انتبه كلّ من في الصف لهم- ومنهم هيثم:

-لماذا؟!"

-"اهدئا مجرد ضغط دم"

-إيّاد: "سلاماتك، على كلٍ تعال حدث الكثير أمس"

بمجرّد لقائهما تكلّما عن العديد من الأشياء، ليون بارعٌ في الاستماع كما أنّه أحبّ سماع قصص إياد جدًّا.

-إياد: "ليون، ما رأيك أن تذهب معنا للتزلّج؟ "

لم يبيّن أيّ ردة فعل بل تصرّف كما لو أنّها أوّل مرةٍ يسمع عن مثل هذه الرياضة غير المعهودة: "تزلّج؟ مع من؟"

-"مع الأولاد تعال أرجوك، سأعيرك لوحًا تعال وحسب"

-ليون: "لا، لا عليك سآتي وسأحضر لوحًا"

-"ممتاز!، كنت أخطّط لهذا منذ مدة"

بعد تلك الحصّة كانت حصة الرياضة، ونظرًا لمرض ليون فقد امتنع عن اللعب فراح يتجوّل في أرجاء المدرسة إلى أن التقى برديـنة

-ردينة: "جئت!"

-ردّ بسرعة: "أجل! "

احمرّت من الخجل فهي تكلّمت دون وعي منها وقد لاحظ ليون ذلك

-"هذا يذكّرني بذلك اليوم، على فكرة عرَّفتِ اسمك الأول ب 'كوثر' لكن الجميع يناديك ردينة، لماذا؟ "

-"اه، ذلك لأنّي أُفضّل اسم ردينة عن كوثر"

-'ليون مُميلاً رأسه: "حرية.. ربّما؟ "

-"لا، بالواقع أنت لا تعرف ذلك لكن والدايّ تطلّقا عندما كانت أمّي لاتزال حاملًا بي، فحين وُلدت ذهبت الحضانة لأمي وغادر أبي فلم أعرفه يومًا، أخبرتني أمّي أنّ أبي أراد أن يسمّيني ردينة، لذلك أفضّل ذلك الاسم فهو نوعًا ما يملأ النقص الذي في داخلي، فأنا لا أعرف عنه عدا هاته المعلومة"

أومأت برأسها بنظراتٍ حزينةٍ غطى عليها جزء من حجابها، ليقول ليون:

-"أنا آسف لم أقصد أن أُذكرك بهذا الموضوع"

-رفعت رأسها وابتسمت متناسية موقفها: "لا أبدًا، أعيش مع أمّي الآن وهي أمٌّ حنونٌ جدًّا لم تجعلني يومًا أتحسّر على أبٍ لم أحصل عليه"

-"جميل، أدامها الله لك وحفظها"-تذكّر حينها والدته 'آمنة' لكنّه تجاهل تلك الذكرى.

-ردينة: "آمين، تعرف أنت من النّوع الذي يفصح له الإنسان بكل شيءٍ حالما يكلّمه، لديك هالةٌ غريبة"

-"حقًا؟ أوّل مرة يقول أحدٌ ما لي هذا"

-ردينة: " ومع ذلك أنت غامض"

-ليون ضاحكًا: "ربّما قليلًا، أظنّني أُفضّل الخصوصية وحسب"

-"خصوصية ها؟.. على كلٍّ عليّ الذّهاب، فالمفترض أن أوصل الأوراق لكنّي التهيت بشكلٍ كامل، أراك لاحقًا"

-"وداعًا"

'هل أنا كذلك حقّا؟'.. بقي يفكّر في كلامها وهو يلوح لها بيده مودعة إياها، ثم واصل المشي إلى أن وصل خلف المدرسة.

داء الانسداد الرئوي المزمن، هو ذلك المرض الذي أصابه نتيجة تعرّضه لغازاتٍ وسموم احتراق السيارة لفترةٍ لم تكن بقليلةٍ نظرًا لبعد المكان الذي وقع به الحادث وتأخّر فرق الإسعاف في اكتشاف الحادث، تتضمّن الأعراض نوبات السّعال والزّفير وصعوبة التّنفس، وهو ما كان يواجهه بشكلٍ متكرّر، مثلَ تلك اللحظة التي راح يسعُل فيها باستمرارٍ وقد أصابه الدّوار نتيجة اختلال نظام تنفّسه، فكاد أن يغمى عليه مجدّدًا ويسقط أرضًا ولكنّه أحسّ بجذعٍ يلامسه ويسنده فارتكز عليه وهو لايزال يعاني الدّوار،

إلى أن بدأ تنفّسه ينتظم وتوضّحت الرؤية أمامه ليكتشف أنّ هذا الشخص كان هيثم..

-هيثم: "أنت لا تتعلّم درسك، ألم يغمى عليك أمس عندما انخفض ضغطك بسبب قلّة الأكسجين؟، ماذا لو كسرت عظمًا أو آذيت رأسك وزدت غباءً؟!"

-"ليس باليد حيلة، لست معتادًا على هذا لأعرف كيف أتصرّف"

-"لا يهمّ، فلنذهب للممرّضة"

-ليون: "لا داعي، قد مرّ.. أليس من المفترض أنّك في الملعب؟ "

-"بلى قرّرت أخذ استراحة "

جلس ليون على الرّصيف يرتاح قليلاً في حين نكّس هيثمُ رأسه للأسفل وكأنّ نوعًا من الإحباط غزا محيّاه، فعندما كان بالملعب تلقى مديحًا كثيرًا كالعادة، والحقيقة أنه جديرٌ به فهو من النوع الذي يبذل جهده في كل شيءٍ ومن الطبيعي أن يتميز لذلك، لكنه استمر في الرد وتوزيع الابتسامات ثم العودة للتجهّم والإحباط، حتّى إنه لم يكن سعيدًا لتفوقه على أقرانه من الطلاب بسبب غياب روح المنافسة التي توقد حماسه.

-ليون: "ها أنت تعود لإحباطك من جديد! يا لك من درامي! "

استفزّه كلامه والحقيقة أنه بالفعل بارعٌ في إبداء نبرة الاستفزاز ليردّ هيثم:

-"ليس للأمر معنًا إن لم تكن هناك"

-ليون: "لهذه الدرجة! "

-هيثم: "من المملّ اللعب دون هدف، بل هو محبط لدرجة ما، و أيضًا هم يستسلمون سريعًا!"

-"وما أدراك بالحياة بلا هدفٍ إذن؟ ليس باليد حيلةٌ لن ألعب لفترةٍ وربما لن أعود للّعب أبدًا في أي رياضةٍ كانت"

سأله قلقا:

-"ماذا تقصد؟ هل وضع رئتيك بذلك السّوء؟ "

-"ليس كذلك لكني أصبت كتفي بشدّة وسيعيقني ذلك قد تنكسر مع أيّ ضغط"-قال ذلك بنبرةٍ واضحٍ عليها الحزن لما آلت إليه الأمور، حتّى هيثم كان مصدومًا من تلك المعلومة لكنه لم يرد أن يظهر له موقفه فردّ: "لا عليك ليس الأمر بذلك السوء، ستتحسن حينها سأتفوّق عليك كالعادة! "

-ليون: "العادة، يالللغرور! "

-انفعل ليردّ بغضب: "هل فقدت ذاكرتك؟ "

-"يا لك من مضحك! "

-هيثم: "أصلاً لِمَ ما زلت أكلّمك؟، أراك لاحقًا حاذر في طريقك"

-"أراك"

زفر بعد ذهابه ثم جلس يتأمّل السماء لمدة، بينما غادر الآخر وقد غمره شعورٌ شديدٌ بالسوء ولذلك سبب..

«أنت غريبٌ حقّا، حسنًا أظنّ أن هنالك فرقًا بين المنافسة والعداوة، على الأقلّ أنت صادق.. فأنت لم تقصد سوءً، دعني أؤمن بذلك وحسب وأرجوك لا تخيب أملي بك أنت الآخر! فإن فعلت لا أعلم كيف سأتصرف.. أرجو أن لا يحدث ذلك..

أنا... أنا..

لا يهمّ، على كلٍّ علي أن أتوقّف عن التفكير في هذه الأمور، وكأني أستطيع، فبالنهاية أكثر ما يعذّبني حقًا هو قدرتي على التّفكير في كل شيء! فإلى متى؟».

الفصل العاشر: كلّ شيءٍ كان محض صدفة

منذ اليوم الأوّل أخذ الجميع انطباعًا سيّئًا عنه، كيف أنّ تصرّفاته مختلفةٌ ونظراته مفزعةٌ أحيانًا، لذلك لم يتجرّأ أيٌّ منهم على مواجهة أفكاره، ففضّلوا الصّمت وتبيان موقفهم منه تجنّبًا له ولخطره، لا يدرون أنّهم يزيدونه همًّا على همّ وأنّ تصرفهم ذلك خطرٌ عليه كسمٍ مقطّرٍ بجوفه.

***

-إياد: "ليون، وعمر وكمال، حسنًا ها نحن أولاء"

-ليون: "عمّ تتكلّم بالضبط؟ "

-إياد متذكرًا: "صحيح كنتَ غائبا أمس، نتحدث عن ذهابنا لنادي التزلج، أخبرتك عنه مسبقًا صحيح؟ "

-"أجل، متى تريد الذهاب؟ "

-إياد: "اليوم! "

-ليون متفاجئًا: "اليوم؟ حسنا.. على كلٍّ أين نلتقي؟ "

-"في بيتي سأعطيك العنوان"

-"حسنًا، سيأتي الأولاد معنا؟ "

-أجاب إياد متجنبًا التواصل البصري: "آه، أجل.."

-ليون: "أعرف أنّهم لم يرغبوا في مجيئي، أخبرني هيثم صباحًا"

-إياد وقد أظهر انزعاجه: "لا أفهم هذا الإنسان! ما مشكلته معك؟!"

-"لا عليك، هو ليس سيئا كما تظنّ"

استغرب إياد من عبارته تلك، أوليس هو من نشر أخباره وسبّب هذه المشكلة أصلا؟، صحيحٌ أنهما يعرفان بعضهما من سنوات، لكن ليس بالضرورة أنهما متحابّان، كما ليس بالضرورة أنهما عدوان..

زار ليون لاحقًا ملجأه المفضّل، أي بين أحضان الكتب ودفء الرّفوف ليلقى ردينة صدفةً هناك فقالت متفاجئةً لرؤيته: "لم أعلم أنك تأتي إلى هنا"

-ليون: "أنا من هواة القراءة، ألا يبدو؟ "

-"لا ليس هذا قصدي فقط قليلٌ من الطلبة يزور المكتبة عادةً لا يزورونها إلاّ لكتابة البحوث أو الدردشة، ماذا تسجّل؟"

-"رؤوس أقلام، لأجل ما أكتبه"

-ردّت بدهشة خالطها الإعجاب: "هل تكتب؟"

-"ليس الكثير عُديه نوعًا من التفريغ، إنه يساعد على مقاومة أعراض الاكتئاب لكنّي اندمجت به مؤخّرًا"

-" وكيف لا تندمج"

-"ماذا عنكِ؟ "

-"مهتمةٌ بالشّعر لكن عُدّني هاويةً حاليًا لأني سأصير ذات يومٍ شاعرةً ماهرة"

-"إن شاء الله"

مع أنه لقاءٌ قصيرٌ جمع بينهما، غير أنه كان كفيلاً بإيقاظ ومضة الإعجاب والحبّ في قلب عاشقة الكتب.

***

بعد يومٍ طويلٍ في الدّوام، دخل ليوهارد البيت ليصطدم بليون مرةً أخرى ما جعل ليوهارد يصرخ:

-"علينا إيجاد حلٍّ لهذا!، لِمَ الباب يفتح للداخل؟"

-ليون: "فعلاً، لا تعتبرها إهانة لكن رأسك يابس!"

-"ها؟؟ تدهشني صراحتك يا ولد! "

-"قلت لك لا تعتبرها إهانة! "

ضحكت ناتالي على هذا الموقف الغريب وعلى وصف ليون بشكل أدق، ليردّ بحنق: "اضحكِي أنتِ!"

-ناتالي: "حسنًا، لن أمنع نفسي على كلٍّ!"

-"ستخرج؟"-سأله ليون بعدما نهض من على الأرض

-ليوهارد بملل: "أجل مع أنّي لا أريد الذهاب، سينفجر رأسي من الضّغط!"

-ليون: "سلامتك، كان الله في عونك"

-ناتالي: "أشكّ! رأسك يابس لن ينفجر بتلك السّهولة"-قالتها بسخرية

-ليوهارد بضيق:" يا لكِ من مضحكة! إنّي أموت ضحكًا!"

-ليون: "على كلٍّ، سأخرج مع رفاقي"

-"اه، حسنًا كما تريد"

-ليون: "أعانك الله، ولا تسمح لعبد الرحمن وقبيلته باستفزازك! "

دخل القصر بينما استوعب ليوهارد جملته، كيف يعرف بهذا؟ فبالفعل، هناك عداوةٌ بين هذين العائلتين، فكّر ليوهارد بعدها بالموضوع قليلاً لكنّه تناساه خصوصًا لمّا لاحظ ناتالي شاردة الذّهن ليسأل: "ما الأمر؟"

-"لا شيء! أُصبت بالدوار وحسب"

-ليوهارد: "إن كنت متعبةً فابقي في البيت، ليس عليكِ الذهاب على كلٍّ"

-ناتالي: "لا أنا بخير، لا عليك.. وأيضًا ما دمت قادرةً فسأساعدك"

-"شكرًا"-قالها من قلبه حقًا..

ناتالي لا تعمل عنده، بل هو من طلب منها المساعدة عندما التقاها صدفة هنا، وهي لم ترفض طلبه فهي تدين له بالكثير لكنّه من النّوع الّذي يعطي وينسى، فيعتبرها مساعَدةً لا ردَّ جميل.

مساءً، التقى الفتية بعد أن أحضروا ألواحهم، فقرروا التوجه للنادي رغم معارضة بعضٍ منهم بحجة 'النادي للأطفال'، فحالما وصلوا للنادي لاحظوا الازدحام الشديد ما جعل المسؤولين يمنعونهم من الدخول، نظرًا لضيق المساحة وكونهم أعضاءً غير رسميين جاؤوا للزيارة فقط، فقال عمر متشكّيًا: "والآن ماذا؟، كل هذا المشي وفي الأخير نعود!!"

-أجابه كمال خائبًا: "لا خيار آخر"

-إياد: "لما لا نذهب للحلبة؟"

-عمر فرحًا: "أجل! أيضًا هي مكان مناسبٌ للكبار"

-ليون: "مستحيل، المكان هناك خطير سيعترضكم الأكبر سنًّا منّا وقد نُسرق فلا يوجد نظامٌ هناك"

-عمر: "بحقّك، لا تكن جبانًا!"

-ليون: "أنت لا تعرف المكان لتتحدّث"

-إياد: "هيّا يا رجل، لِمَ كلّ هذا القلق؟ "

-ليون مصِرًّا: "مستحيل"

-كمال: "أنت مدلّل أنا سأذهب، من معي؟ "

-إياد: "أنا سأذهب"

-عمر: "وأنا، لا ضرر في ذلك"

-ليون: "إذن أراكم غدًا! "

-عمر منزعجًا: "أنت مدلّلٌ حقًّا! عد للنّادي مع الأطفال! "

-ليون: "صدّقني لا يهمّني كلامك، وداعًا"

غادر بعدها في وسط تأفّف عمر وكمال بينما استمرّ إياد بمناداته إلاّ أنّه غادر دون أن يلتفت للوراء في حين هم أكملوا طريقهم نحو تلك البقعة من المدينة المعروفة ب 'الحَلَبَة'.

لرفض ليون سببٌ واضحٌ وهو معرفته للمكان فبالرغم من أنّه مكانٌ ممتازٌ للتزلّج لكنّه مليءٌ بحثالة القوم المنحرفين عن الدّين الحقّ، والمشوّهين لصورة البلدان العربية للأسف الشديد، الفتية سيكونون لقمةً سهلة لهم خصوصًا، وهم غريبون عن المكان، وذلك ما كان!

فبمجرّد دخولهم ل'منطقتهم' أحاطوا بهم، كان من الواضح أنّهم يستهدفون سرقتهم خصوصًا ألواحهم التي كانت معظمها جديدة وهواتفهم، إلاّ أنّ رفاقنا أبَوْا الاستسلام فاضطرّوا لبدأ عراكٍ بينهم ولم يكن ذلك سوى للدفاع عن أنفسهم، لكن من الواضح أنّهم خاسرون ما أوقعهم في موقف صعب..

أما ليون فاستمرّ بالسّير لكن ببطء، لم يستطع إزالة موضوعهم من تفكيره، هل 'هم بخير؟ هم لا يعرفون المكان، واثق من أنّهم سيهاجمون..'

توالت عليه بعض الذّكريات من والده الّذي حذّره بشدّةٍ من ذلك المكان وساكنيه، هو متأكّدٌ أنّه لو كان هنا وعلم أنّه ذهب إلى الحلبة سيعاقبه! لكنّه مع ذلك عاد لنفس المكان، ليس لأيّ سبب ما عدا قلقه على رفاقه، وقد وجدهم بعد وقتٍ قصيرٍ داخل نطاق الحلبة، ساقطين على الأرض تملأ أجسادهم الكدمات وأولئك الأوغاد لم يكتفوا بضربهم بل كسروا ألواحهم أيضًا أي أنّهم لم ينووا السرقة، وكأنهم أرادوا الاعتداء عليهم ليس إلاّ، ذلك أغضب ليون حقًا فقد فهم وقتها كلّ شيءٍ لكنّه لم يفكّر كثيرًا فكلّ ما كان يدور في ذهنه هو كيفية إبعادهم عنهم ولكنه أعزل! مع ذلك، عليه فعل شيء فضميره لن يريحه!

انتهى به الأمر يرميهم بالحجارة ليصرف انتباههم وحالما رأوه عرفوه! كيف يعرفونه..؟

حالما رأوه وضع لوحة على الأرض وانطلق بأقصى سرعةٍ وقد لحقوه جميعًا كأنّهم كانوا يستهدفونه من البداية، كان يعلم أنّهم سيفعلون ذلك على كلٍّ، واستمرّوا في مطاردته ومع كلّ هذا فقد كان مستمتعًا بطريقةٍ ما، حتّى إنّه وبعد فترةٍ طويلةٍ من الجمود عاد يضحك وكأنّ الحياة رجعت إليه في تلك الطّرقات الّتي أخذت شكلاً لولبيًا!

لقد كان سعيدًا حقًا وهو يضيّعهم عبر الأزقّة، إلاّ أنّ تلك السعادة لم تدم فقد نال منه الإرهاق وانتهى بأحدهم يعترض طريقه ليسقطه أرضًا، ثم صار من يكبره في السّنّ بركله دون رحمة، حتّى اختنق فكاد يتقيّأ من شدّة الضّغط المسلّط على معدته، لكن الآخر ضغط بقدمه على كتفه الأيمن باستمرار وهو يضحك بسخرية:

-"أين شجاعتك تلك قبل قليل! سحقا أين أولئك؟.. "

ما إن كاد يكمل جملته، حتى سقط أرضًا بعد تلقّيه لضربةٍ قاسيةٍ في منتصف رأسه بواسطة اللّوح الّذي كسره قبل قليل!

-عمر: "هل سقط؟ "

-كمال: "رائع إنّه الأخير"

-قال إياد معينًا ليون على النّهوض: "هل أنت بخير؟"

-ليون: "واو، هذا مذهل!"

-إياد: "لقد عدت! مع أنّك.. "

ابتسم ليون بلطفٌ وقد لاحظ الامتنان في أعينهم ليقول: "ماذا توقّعت؟"

-كمال منكّسًا رأسه: "آسفٌ لأنّي قلت عنك إنّك مدلّل"

-ليون: "لا تهتمّ للأمر، فلنغادر قبل أن يستفيقوا"

-تساءل عمر: "أليس علينا إخبار الشرطة"

-ليون: "لن يبالوا لك فهم معتادون على الشّكاوى منهم، وإذا ذهبت سيعاتبونك قائلين لِمَ ذهبت عندهم من الأساس؟"

-إياد: "تبدو خبيرًا"

-عمر: "أجل! أنت بارعٌ في التزلّج! لَمَ تخبرنا ذلك"

-ليون مع ضحكةٍ خفيفة: "لو ذهبنا للنادي لعرفتم"

-إياد: "أنت عضو رسميّ فيه صحيح؟ هذا واضح من لوحك، لاحظته تًوا!"

-ليون: "حزرت"

-إياد: "كان يمكنك الدّخول للنّادي من البداية"

-"لكنّي أردت أن نذهب معًا! أيضًا كان ذلك ممتعًا"

-كمال وعلامات الدّهشة لازالت مرسومةً على وجهه: "تشعرني بالذّنب بشدة، أنت مختلفٌ جدًا عمّا كنت أظنّه"

-عمر: "فعلاً، أشعر بالغباء لاستماعي لهيثم"

-ليون: "هو لم يكذب على كلٍّ"-أشاح بعينيه نحو الفراغ

-عمر معترضًا: "وإن يكن! ما زلت طيّبًا أو على الأقل هذا ما أراه"

-ليون: "طيّب.." أسعدته تلك الكلمة ما جعله يبتسم ببراءة

-إياد: "على كلّ فلنعد تأخّر الوقت".

بعدها تابع الفتية الحديث في الطّريق وحينها أيقنوا أنّ ليون ليس مبتدئًا كما كانوا يظنّون، بل بالعكس هو محترف بتلك الرياضة حتّى إنّه أحرز جوائز وميداليات بها إذ يبدو أنّه رياضيٌّ منذ الصّغر.

-كمال: "لمَ لا تشارك في الماراتون؟، متأكّدٌ أنّك ستحرز مركزًا رائعًا"

-إياد: "أجل فلتفعل، سنشجّعك!"

-ليون: "هذا لطفٌ منكم لكن مستحيل"

-إياد-بنبرةٍ واضح عليها الصّدمة: "لمَ لا؟؟ ثق بنفسك! "

-"ليس الأمر كذلك لكن... كتفي"

عمر: "كتفك؟"- قالها باستغرابٍ وقد سبقته يده ليضعها على كتفه الأيمن، فوُخز ليون بسبب حركته تلك وكان واضحًا للباقين ذلك خصوصًا عندما اعتلى وجهه تعابيرٌ تنمّ عن الألم، و لو أنّها ضعيفة الظهور.

-كمال: "لا يبدو أنّك بخير، فلنمر على المستشفى"

-ليون: "متأكّد أنّه مكسورٌ أو على الأقل مصاب"

-كمال: "هذا سبب أقوى لذهابك!"

-عمر: "كيف كسرته؟ ألم تشعر بذلك سوى الآن"؟

-ليون: "ذلك الوغد استهدف كتفي، وأيضًا اعتدت على كسر عظامي بحكم تلك الرياضة الخطرة، وهو مخدّرٌ أساسًا منذ أصبته بالحادث فبالكاد أستطيع تحريك يدي الآن"

-إياد: "ماذا تقصد؟ لم أفهم! "

-"لا يهم، هل يحمل أحدكم هاتفًا؟، أريد الاتّصال بجورية"

-عمر مناولًا إيّاه هاتفه: "تفضّل"

-إياد: "هل لي أن أسألك من هي جورية؟ تذكرها كثيرًا في كلامك"

أشعره ذلك نوعا ما بالحيرة، هو يعزّ جورية لكن كيف له أن يعرفها؟

-"يمكنك أن تقول أنّها مربيتي"

ابتسم بعد جملته تلك، قد ابتسم أكثر من المعتاد اليوم، ثم هاتَفها وانفصلوا بعد أن ذهب كل واحدٍ منهم في طريق، أما جورية المسكينة فكانت مفجوعةً ممّا أصابه فواضحٌ من ثيابه المغبّرة أنّها ليست مجرّد سقطة، حالما سألته أجابها بكلّ صراحةٍ ما أغضبها للغاية لذهابه لمثل ذلك المكان ولم تمسك نفسها عن الصّراخ وتوبيخه، حسنًا كان يتوقّع ذلك على كلّ حال..

-"آسف"

-"آه منك لكنك عدت لأجل رفاقك لذا سأسامحك هذه المرة، أنسيت ما جرى في المرة الفائتة مع هيثم؟"

-"لا، هذا يذكّرني لن أشارك بالماراتون هذه السنة"

أحسّت جورية بالحزن لجملته تلك، لقد أضحى أضعف منذ ذلك الوقت..

في الجانب الآخر هناك من سعد لغيابه عن الماراتون، كيف لا وذلك سيكون في صالحه!.

«هذا مؤلم، لا أقصد الكسر الّذي في عظامي بل الكسر الّذي سببته!..

ولو أنك مسؤولٌ عن كليهما، يمكنني أن أتظاهر بالجهل وكأنّ كلّ ما جرى اليوم كان محض صدفة! أتساءل كيف تشعر أنت حيال الأمر؟

ومجددًا مازال السؤال ذاته يتردّد عليّ بهذه الشدّة مع كلّ موقف.. من أنا؟».

الفصل الحادي عشر: وحيدٌ

أن تعيش في هذا العالم يعني أن تحمل اسمًا، قد لا يكون اسمك فقد يكون مجرّدَ لقب ولكنّه بالنهاية يمثلك، يعبّر عمّن أنت في هذا العالم، فحتّى أولئك الّذين ماتوا دون اسمٍ أُطلقت عليهم الألقاب مشيرةً لموتهم، لكن لا أحد سيتذكر كيف عاشوا لأنهم ببساطة 'مجهولون' بلا اسم وبلا ذات، هل سألت نفسك يومًا حينما تغادر هذا العالم كيف سيتذكّرك النّاس؟ وماذا سيطلقون عليك؟

كيف لك بطرح مثل هكذا سؤال وأنت لم تطرح على نفسك سؤال: من أنا؟

***

دخل البيت بتثاقلٍ شديدٍ، والإرهاق واضحٌ عليه، لقد كان يومًا طويلًا جدًّا ومليئًا بالصراخ والتوبيخ خصوصًا بحمله للماراتون بين طياته، ما كان عذابًا بالنسبة له رغم فوزه به عن جداره ونيله فرصة الالتحاق بنادٍ عريق..

بينما هو يسير على الدّرج الفخم المتناسق مع ديكور البيت الحديث وباهض الثمن، والذي لم يكن بيتًا بل أقرب لقصرٍ لكبره وطبيعة تصاميم غرفه الأنيقة الواسعة، ثم ارتمى على فراشه وأغمض عينيه النيليتين شديدتا الجمال، لم يكن لونهما معهودًا ما أعطاهما سحرًا خاصًا، وكأنهما البحر في ظلمة الليل، أفاق بعدها بفترةٍ قصيرةٍ على صدى صراخٍ مزعجٍ تكرهه أذناه بشدة، صوت تلك العجوز الشبيه بالغراب!.

تجاهله كعادته وقد سدّ أذناه ثم حمل هاتفه يتفحّص مواقع التواصل الاجتماعي الخالية من أيّ تواصل، ذلك لأنه لا يُحدث أحدًا، حسنا إلا هو...

رغبةٌ شديدةٌ تجتاحه، يريد أن يكلّمه عن يومه الطويل والغراب التي تسكن معه و لكنه لا يقدر.. ضميره لن يسمح له هو يعذبه وحسب.

***

كانت تلك الليلة صعبةً على ليون خصوصًا فالحمى لم تفارقه بسبب الكسر الّذي على كتفه، لكنّ باله كان مشغولًا بأمورٍ أخرى..

ورغم كل ما مرّ، فقد حلّ الصّباح على القصر جالبًا الأمل معه لتدخل جورية لغرفته وهو أخيرًا قد غطّ في النوم فقررت تركه ينام، بعدها دخل ليوهارد كالمعتاد ليرتمي على الأريكة بالصالة ضجرًا، فقالت جورية:
"صباح الخير سيد ليوهارد، كيف كان عملك؟"

-ردّ: "صباح النّور، ولا تقولي سيّد أرجوكِ، آه.. يومي كان مرهقًا، كيف تحَمّل أبي كلّ هذا الضّغط؟! "

-"كان السّيّد أوليفر رجلًا قويًّا، متأكدةٌ أنّك كذلك "

-"شكرًا لك، أين ليون ألم يستيقظ؟"

-"تركته نائمًا"

قاطعها نزوله في نفس اللّحظة من الدّرج قائلًا: "لستُ بنائم"

-جورية: "أليس من الأفضل أن ترتاح؟"

-ليوهارد: "مهلاً، ماذا جرى لك؟!"

-ليون: "قصةٌ طويلة، المهمّ كسرت كتفي"

-"آه، علينا فحصك"

-"لا عليك، سأذهب للطّبيب على كلّ حال أليس موعد الطّبيب النّفسي اليوم؟ "

-جورية: "آه، نسيت تمامًا"

-ليوهارد: "مهلًا، دعني أذهب معك"-قالها دون وعيٍ وهو من يتصرّف ثمّ يفكّر

-"حسنا، كما تريد"-قالها بينما أشاح بعينيه عنه، ذلك أثار حنق ليوهارد فهو يتصرّف بشكلٍ غريبٍ اتّجاهه ما جعله يقرّر ملاحظته! وتبيّن له أنه يشيح بنظره مع كلّ من يكلّمهم ليس هو فقط! ذلك أشعره نوعا ما براحةٍ نفسية، ثم

ركبا السيارة معًا ليكون ليوهارد السّائق ثمّ سارت ببطءٍ بينما يرمي ليون بعض النظرات الجانبية للسائق أحيانًا فقال: "ما الأمر؟ هل بي خطبٌ ما؟"

-"ماذا جرى لباب سيارتك؟"

-"آه، خلعته في الصّباح...كان عالقًا... حسنًا فتحته للخارج، نسيت أنّه يفتح للأعلى!"

-ليون بنبرةٍ ساخرة: "لديك ضغينةٌ اتّجاه الأبواب"

-"ربّما.."

جعله كلامه يحسّ بالحرج الشّديد، أما ليون فضحك ضحكةً خفيفةً على منظره

-ليوهارد: " تبدو ألطف عندما تضحك"

-"فعلًا؟ علينا التّعارف أكثر"

-"رائع توافقني الكلام"

-ليون: "لم أنس ذلك اليوم، لكنّي أريد أن أؤمن بك وحسب"

-قال مستغربًا: "تؤمن بي؟ "

-"لا عليك، فقط... لا يهمّ ألم نصل بعد؟"

أخد يتأمّل الطّريق عبر زجاج النّافدة وعلى محيّاه نظرةٌ غريبةٌ كأنّه مكسورٌ أو محطّم، لم يفهم ليوهارد السّبب لذا قرّر أن يدعه وحسب حتى وصلا لوجهتهما، والحمد لله أن لم تكن نتائج الفحص بسيئةٍ فقد تحسنت حالته النفسية، على الأقل هو يبتسم هذه الفترة أما رئتاه فلم يكن الوضع خطيرًا، فقررا الذهاب لشراء هاتف جديدٍ وقد فعلا، إلا أن الأمر كان أسرع مما يظنان

-ليوهارد: "أتريد العودة"

-"لا أدري دعنا نتجوّل"

-"موافق، بالمناسبة أردت سؤالك ذلك اليوم قلت لي 'حذارِ من عبد الرحمن وقبيلته' ماذا قصدت بذلك؟ "

-ردّ: "أنت لا تعلم شيئًا عن ذلك صحيح؟ "

-صرخ ليوهارد بلا وعيٍ منه: "ليس ذنبي!"

-ليون: "لم أقل إنّه ذنبك! أنت مرتاح البال دعك كذلك وحسب"

-"لا، أخبرني! هيا! هيا! هيا!.."

-"حسنًا تتصرّف كالأطفال، الأمر يتعلّق بوالدي.. والدنا.. قبل الزواج من والدتي.. أم.. والدتنا"

-ليوهارد: "لا يهم، تكلم وحسب! "

-"بل هو مهمّ!، قبل الزّواج بها كان متزوجًا بامرأةٍ أخرى من هذا البلد لهذا بقي به، لكنّهما لم يتّفقا رغم زواجهما عن حبٍّ وانتهى بهما الأمر بالطلاق"

-ليوهارد: "قبل أن تكمل، كيف تعرف كلّ هذا؟ "

-"دعني أكمل وستفهم، تعلّم الإنصات"

أحسّ باستصغارٍ لكنّه أخفاه ليردّ باستسلام: "حسنًا، حسنًا صَمَتُّ"

-ليون مسترسلًا: "بعدها تزوّج أبي بوالدتنا وتزوّجت طليقته من رجل آخر غصبًا، لأنّ عائلتها أجبرتها على ذلك بحكم أنّها مطلّقة، فحقدت على أبي أشدّ الحقد وبدأت العداوة بين الشّركتين، لطالما اتّخذت أقذر السّبل للإيقاع بنا وانتهى الأمر بخسائر لشركة 'إيمانويل'"

-ردّ ليوهارد وقد بدأ يدرك القصّة: "فهمت لِمَ يراقبني مدير الشركة عبد الرحمن ويعرف كلّ مخططاتنا"

-ليون: "بالواقع معرفتهم لمخططات شركتك دليلٌ على أنّ بينكم خائن"

-رفع حاجبيه باستنكار ليردف: "مستحيل! ليس لتلك الدرجة"

-"لو وجدت بلقيس كيف تقتلك لفعلت! إنّها مختلةً عقليًا حتّى إنّ هناك تحقيقًا مع طبيب والدي بسبب تدهور صحّته غير المبرّر قبل الحادث بفترةٍ قصيرة"

-"عجبًا!، لِمَ كلّ هذا الحقد؟ "

-أجاب: "لأنها تلوم أبي على زواجها بالإكراه وضياع حياتها"

-"آه، ما ذنبي أنا إذا؟ "

-"لا شيء، هي تحمل ضغينةً للعائلة كلّها حتّى أنا"

-ليوهارد: "حقًا، حتى ولدها عبد الرحمن يحقد علينا. "

-"لا ولدها لا يكِنّ الضّغينة ولكن لا يريد عصيان والدته، ليس بعد أن عانت طيلة حياتها"

-ليوهارد: "تبدو موقِنًا بالأمر"

-"أعرف ذلك من هيثم، هو من أخبرني بالقصة"

-ضيّق عينيه ليقول: "هيث.. هي.. ماذا؟"

ضحك ليون فجأةً على لكنته وأردف وهو مازال يضحك: "هيثم، طريقة نطقك لها غريبةٌ خصوصًا حرف الثاء"

-ليوهارد بغيظ: "يا لك من متنمّر! وتلعب دور المسكين، تعلم أنّي بالكاد أتقنت العربية"

-"آسف، المهمّ هيثم هو حفيدها، يدرس معي حاليًا"

-ليوهارد: "أنتما صديقان؟ "

-"لا أدري نتكلّم معًا لكن خفيةً وأيضًا هو نوعًا ما جاسوسٌ لها، خصوصًا عند توفّر عروضٍ أو فرصٍ قد يبرز اسم عائلتهم بها"

-صرخ مجدّدًا: "جاسوس! فلتتجنّبه"

-ردّ حازمًا: "لن أفعل! هيثم ليس سيئًا هو مجبرٌ على ما يفعل ولو أنه لا يظهر ذلك لكني موقنٌ به"

-"أنت أدرى، تتعاطف معه؟"

-ليون: "جدًّا، هو نوعًا ما وحيد"

-"اكتشفتُ أنّك من النّوع الّذي لا يسيء الظّنّ بالنّاس"

-ردّ بحماس: "بالطّبع! إنّ ذلك أسوء ما قد يفعله إنسانٌ لغيره بالنّسبة لي"

-"أن يسيء الظّنّ؟ "

-"بل أن يحكم عليّ قبل أن يعرفني"

-"فهمت.. ما رأيك أن نذهب للسينما؟ "

-ليون: "تدهشني تغيّرات أنماط تفكيرك"

-بلكنةٍ متسائلةٍ قال ليوهارد: "ها؟ لِمَ؟ "

-"ذلك دليلٌ على الذّكاء"

-"آه رائع!، أظنّك تمدحني"

-ليون: "هل ستسيئ الظّنّ؟ "

-ليوهارد: "لا، أنت خبيثٌ يا ولد! أجد نفسي أكلّمك في نفس الموضوع دون وعيٍ وأنا من حاولت تجنّبه"

ردّ الآخر بابتسامةٍ خفيفةٍ مستفزّةٍ نوعًا ما، حسنًا هو بارع في الاستفزاز..

بعدها قضى الأخوان بقية اليوم معًا بين السينما وبضع أماكن أخرى ذلك ساعدهما على إزالة بعض الحواجز في علاقتهما، وفي النّهاية عادا إلى البيت بعد يومٍ طويلٍ لكنّهما كانا بحاجة إليه فعلًا.

***

أوّل من اتّصل به ليون بعد عودته للبيت كان إياد الذي تفاجأ من اتصال رقم غريبٍ و إذا به ليون.

-إياد بعد ردّه: "سأحفظ رقمك، من الرائع أن نتواصل! "

-"صح، كيف كان يومك؟ "

-إياد: "حماسيًا، شاركت في الماراتون لكن هيثم فاز، يستحقّ ذلك لكنّه بدا غير مبالٍ رغم أنّ ناديًا كبيرًا تبنّاه"

-علّق ليون بتساؤل: "فعلاً؟"

-"لا أفهم ذلك الولد، هو فظٌ أحيانا ولطيفٌ أحيانًا"

-ليون: "أظنّك لا تعرفه وحسب، لا تسئ به الظّنّ أرجوك"

-إياد: "هل أنتما مقرّبان؟ "

-"أعرفه نوعًا ما بحكم عمل والدينا"

-"حقًا؟ أنت لا تخبرني شيئا عنك! من تكون؟ "

-"أنا؟ لا أعلم.."

-إياد: "بحقّك، من يكون إيمانويل ليون؟ "

-"هذا سؤالٌ يمكنني الإجابة عليه"

لم يفرّط ليون في كلمةٍ مع إياد حتى فرَّغ له ما لم يقله يومًا لغير والديه، هو يرتاح له لسببٍ ما ربّما لأنه مثله صادق..

-إياد بعد كثيرٍ من الحقائق: "لم أعرف كلّ ذلك عنك"

-"ها قد عرفت"

-"أتريد أن تعرف أصلك؟"

-ليون: "أصلي؟، لا أعلم طول حياتي عشت ك 'ليون' ابن 'أوليفر إيمانويل' لم أفكّر خارج ذلك، الآن فقدتُ تلك الهويّة ولم أعد أدرك شيئًا"

-صرخ بحماس: "لنبحث في الأمر! "

-"بجدية؟ "

-"أجل، والدي محقِّقٌ سينفعنا في ذلك لنفعلها! "

ابتسم ليون مع نفسه قليلًا ثم وافق في الأخير ليقول إياد: "لنتواعد على كشف ذلك معًا"

-"أعدك"

أغلقا الاتّصال بعد تعارفٍ طويل، وليون يحسّ بالحياة تدبّ في عروقه ليكون ثاني شخصٍ بالقائمة هيثم، إلاّ أنّه لم يجبه رغم اتّصالاته الكثيرة، فقرّر انتظار الغد للقائه، وعلى النّقيض لم يكن ليوهارد سعيدًا بل كان

حزينًا يفكّر بشدّة، وذلك لسببٍ واحدٍ لا غير وهو اقتراب موعد عودة ناتالي لعملها الأصلي ما يعني أنّه سيكافح وحده مجدّدًا.

«مِن الجميل حقًّا أن تجد من يقف بجانبك، بالتفكير بالأمر، العيش ليس بذلك السوء.. يا له من وعدٍ جميلٍ ربّما حينها ستكتمل الحلَقة الناقصة، أتساءل إن كنت سأجيب على السّؤال إن عرفت ذاتي، ذلك لأعرف أناي».

الفصل الثاني عشر: صادق

لستُ غبيًّا لكنّي لسببٍ ما أؤمن أنّ ذلك ليس أنت..

أتذكّر أوّل لقاءٍ جمعنا، عندما انتهى بنا الأمر ضائعين لقد كُنت أوّل صديقٍ لي مع أنّك تكرّر مع كلّ لقاء 'لست صديقك'، لا أريد أن أتركك تواجه كلّ شيء وحدك، لقد اعتدت على الوحدة، لكنّها لا تعتادك، ليتك فقط تمنح نفسك فرصة.

***

جلس يفكّر طويلاً، ليوهارد هو من طلب من ناتالي أن تساعده وهي قد وافقت ولكنّ عملها ذلك مؤقّت، في الغد ستعود لعملها الأوّل بالفعل حان الوقت بتلك السّرعة..

أثارت حالته استغراب ليون، فذلك مبالغ به، هي لن تموت!

ليتأكّد أنّ قيمتها له أكثر بكثير ممّا يظنّ، ما جعله يجزم أنّه واقع في عشقها!

توجّه ليون نحو المطبخ وأعدّ بعض الزّعتر المُرّ، ثمّ قدّم كأسًا منه إلى جورية أوّلاً تلك الّتي انهمكت تطوي الغسيل فتعالت وجهها ابتسامةٌ تكاد تشقّه لفعله، وتقدّم بالثّاني لليوهارد عله يُهدّئ أعصابه ولكنّه ما إن رشفه حتّى بزقه!

-ليوهارد: "مُرٌّ، مُرٌّ جدًّا ما هذا؟! "

-"زعتر"

-صرخ ليوهارد: "زعتر! عشبةٌ أخرى؟، على الأقلّ ضع سكرًا! "

-ردّ وقد بدأ يعتاد صراخه المفاجئ: "لا يُشرب بالسّكر"

-"لكنّه غريبٌ ومُرٌّ"

-ليون: "تتصرّف كالأطفال، اشربه وحسب علّك تريح عقلك"

-ليوهارد: "عقلي؟ لهذا أعددته؟"

-أدار بعينيه ثم ردّ: "طبعًا فأنت تبدو متوتّرًا، لأنّها سترحل.. "

ما إن أنهى جملته حتّى بزق الآخر الرّشفة التي ملأت فمه، ما أصابه بغصّة فاحمرّ خجلا بينما راقبه الأصغر بجمودٍ تامّ ليقول مدافعًا عن نفسه: "ليس الأمر كذلك! "

-رفع ليون حاجبيه بينما مطّ شفتيه ليردف ساخرًا: "صدّقتك تعلَّم النّفاق! أو لا تتعلّمه، المهمّ وداعًا"

بالطّبع هو لم يصدّقه، لكنّه يعامله بما يريد.

***

بالعودة لذلك البيت، جلس هيثم يلعب بخصلات شعره الفحمية يَحُلّ واجبه ويقاوم النّعاس حتى انتهى به الأمر نائمًا على مكتبه، ليوقظه صوت رطم الباب القويّ من قبل العجوز التي تكون جدّته، نظر إليها نظرةً جانبيةً تحمل الحقد والاشمئزاز، نفس النّظرة التي أبدتها العجوز حالما اقتحمت الغرفة!

-العجوز: "ما الّذي تفعله في هذا الوقت؟ ظننتك نائمًا"

-هيثم: "كنت أحلّ واجباتي"

-"رأيتك نائمًا"

-تأفّف ليقول: "ما الفائدة من هذا الكلام؟! "

-"أبوك وصل وطلب منّي مناداتك كأنّي مشتاقةٌ لك! لِبرّك أو شطارتك مثلاً!"

-ردّ بحنق: "لم يكن عليكِ المجيء، لست مشتاقًا لك أيضًا"

-صرخت فيه: "اخرس يا ولد!.. النّاس عندها أحفادٌ وأنا عندي أنت! "

خرجت بعد جملتها تلك وقد رطمت الباب بقوّةٍ بينما تحدّث هو بصوتٍ عالٍ ليفرغ غضبه: "يا لكِ من مزعجة، متى تموتين! أكرهك بشدّةٍ لو لم تكوني مهمّةً لأبي لما سمعتُ عنكِ أساسًا!"

نزل بعد ذلك للأسفل ليرى أباه الغائب منذ شهرٍ تقريبًا، و كم كان اللّقاء حميميًّا بينهما، فالحقيقة أنّ الأب يُعزّ ابنه وأمّه في الوقت نفسه لكنّ الابن يكره جدّته بقدر ما تكرهه هي، إنّها دائمة العتاب له فبالنّسبة لها هو إنجازٌ يحتسب لصالحها ضدّ زوجها الأوّل الّذي كرهته بشدّة، فهي لم تعطف يومًا على حفيدها، لم تحلّ محلّ أمّه الّتي لم يعرفها يومًا كما كان يرجو رغم أنها تبقى معه فترةً أطول من أبيه ما جعله يمقتها بشدّة والأمر متبادل!.

حلّ صباحٌ جديدٌ طوى خلفه مشاكل بين الأخوين، فتوجّه كلّ واحدٍ لما لديه من مدرسةٍ أو عمل، وبينما كان يمشي ليون على طول الطّريق وباله مع

ليوهارد يفكر ترى ماذا سيفعل وهل سيعترف؟ كان من الواضح أنّه لم ينم طول اللّيل قال بصوت عال مخاطبًا نفسه: "أهي من يعيش لأجلها الآن؟"

-"ماذا تقصد؟ "-أدلفت ردينة الّتي ألقت عليه التّحية لكنّه لم يلاحظها

-"لا أدري.. ها؟ متى جئت؟"-قال بصدمةٍ بعد أن أدرك أنّها تمشي أمامه

-ضحكت ردينة بمرحٍ لتردّ: "كنت أمامك كَلَّمتك ولم ترد!"

-"لم ألاحظكِ، آسف"

-"لا عليك، كنت سأسألك ماذا جرى لكتفك؟"

-"قصة طويلةٌ إن كنت تريدين سماعها"

-"أجل"

أكمل الاثنان بقية الطريق وهو يروي لها ما جرى قبل أمسٍ ما جعلها تتفاجأ من عدّة نواحٍ معلّقةً: "لِمَ هاجموكم على كلٍّ؟"

-ليون: "تلك صدفة! "

-"صدفة، حقًّا؟ "

-"لم تفهميني، المفترض أنّها صدفة"

-"تقصد أنّ الأمر مدبّر، لماذا؟ من يحقد عليك؟ لا تبدو سيّئًا"

ابتسم ليون لجملتها الأخيرة ما جعلها تبتسم هي الأخرى لا شعوريًا لتصاب بالحرج بعد أن أدركت نفسها، حتى نطق ليون مفسِّرًا: "هي زوجة أبي الأولى تكرهني لأنّي ابنه"

-علّقت باستغراب: "ماذا؟ وما ذنبك؟ "

-"ليفوز حفيدها ويتبنّاه النّادي المعروف الّذي حضر الماراتون، ما يزيد من درجة رقيّ العائلة، لا يهمّ حقًّا.. ليست أوّل مرّة، مع أنّي لست ابنه"

همس بجملته الأخيرة تلك، ما أثار استغراب ردينة لكنّهما انفصلا عند الصّف.

وعلى الباب قال عمر: "لم أعلم أنّ لك شعبية، أتتواعدان؟ "

فتح عينيه على كبرهما ليردّ: "كيف فهمت؟ لا أبدًا، استغفر الله "

-"لِمَ لا؟ أنا الأجنبي أم أنت؟ تبدوان لطيفين معًا"

-ليون: "مبدئيًا عشت هنا طول عمري كما أنّي مسلم"

-قال بتململ: "لا تريد أن تكونا معًا؟"

-"معًا؟ تذكّرت ليوهارد.. لحظة سأعود"

ذهب ليون وترك الآخر بحيرةٍ من أمره ما زاد من شكّه ليليه مجيء إياد فيوسوس له هو الآخر، في حين توجّه ليون نحو صفّ ردينة وتحديدًا إلى مقعدها ما فاجأها.

-ليون: "تذكّرت! أردت سؤالكِ عن ماذا يقدمون في هدية وداعٍ لفتاة؟"

ردّت محاولةً إخفاء استغرابها من سؤاله المفاجئ: "وداعٍ لفتاة؟ هذا يعتمد على طبيعة علاقتك بها"

-"نوع العلاقة إذن.. أحتاج شيئًا يعبّر عن الحبّ"

-"الحّب! "-صرخت ردينة متفاجئةً من كلامه، فلسببٍ جهلته أحسّت بالحزن وكأن شيئًا ما داخلها تحطّم.

-"نعم، أعتقد أنّ أخي يحبّ فتاةً ما لكنّها ستغادر ففكّرتُ أنّه سيكون عليه شراء هديّة وداع، ولكن بالوقت نفسه يظهر لها حبّه بطريقةٍ غير مباشرةٍ متأمّلاً عودتها، لمَ كنتِ مصدومة؟"

أحسّت براحة شديدةٍ ومازالت تجهل السّبب، ثمّ تجاهلت سؤاله الأخير فهي لا تدري بما تجيب حقًّا لتقول: "حسنًا.. ما رأيك بخاتم"

-تساءل: "خاتم، لمَ؟ "

-"حسنًا، هو يدلّ على الخطبة والزّواج لذا سيكون تلميحًا"

-"وهل ستفهمه؟ "

-"أظنّ ذلك، هذا رأيي كوني فتاة وأفهم تفكيرنا"

-ابتسم ليقول: "شكرًا جزيلاً لكِ ردينة، صحيحٌ لنلتقي بالمكتبة وجدت كتابًا مثيرًا للغاية! "

غادر بعدنا ليتركها في حيرةٍ مع نفسها تجهل لمَ تتصرّف هكذا عندما يكلّمها، فيخفق قلبها بشدّةٍ في حين تحمرّ وجنتاها بلا داعٍ، وتحسّ كأنّ الوقت الذي تقضيه معه طويلٌ ولكنّه يصير قصيرًا حالما يغادر، لتدرك أنّها ببساطةٍ معجبةٌ به ما جعلها تحمرّ في مكانها وتخبّئ وجهها المحمرّ عن مرأى الجميع بين طيّات حجابها.

خلال كل ذلك، دخل هيثمُ الصّفّ ونام على مقعده مباشرةً فكلّ جزءٍ من جسمه يؤلمه بسبب الماراتون، ما جعل ليون يستغلّ الفرصة ليسحب إحدى

شعراته الفحمية فينتفض الآخر لهذا التّنبيه الّذي لم يتوقّعه، ثم صرخ هيثم: "آخ، مؤلم! ماذا تريد؟"

-"أتأكّد أنّك لم تمت بعد، للأسف"

-ردّ بحنق: "مزعج! ها؟ كسرت كتفك تهانيا! "

-ردّ بسرعة: "شكرًا! تمنَّ الشّفاء على الأقل! "

-"ها؟ ولمَ مثلاً؟ يا لك من مزعج! دعني أنم"

أعاد رأسه بين كتفيه على الطاولة فلم يفعل ذلك سوى لإخفاء تعابير الصّدمة والغضب التي اعتلته من مكيدة تلك المجنونة، فهي كانت سببًا لإصابته مقابل انتصارٍ وهميٍ بعقلها المريض، وفي الوقت نفسه شعوره بالذنب لاشتراكه في الجرم، فعلى كلّ حالٍ هو من أخبرها أنّ ليون مصابٌ بكتفه وقد ينكسر، تلك المعلومة التي لم يعلمها سواه ذلك أنّ ليون أخبره هو فقط، لهذا كان مدركًا أن كتفه سيُكسر منذ طلَب منه أصدقاؤه الذّهاب للحلبة! ما جعله يكره الماراتون والجائزة، والنّادي بكبره!.

هيثم لا يكره ليون رغم تصرّفاته، فهو من النّوع الّذي يبدو له إظهار مشاعره شيئًا من الضّعف فيتظاهر بعدم المبالاة رغم أنّه ليس كذلك، ومع ضغط جدّته المستمر عليه وكيف تقارنه بليون باستمرارٍ وتتحسّر على ابنها كونه الحفيد الوحيد ولم يتفوّق على ليون لكنّه لم يجعله يكرهه، خصوصًا أنّ ليون يفهم ذلك و لم يلمه يومًا..

حسنًا، ليست أوّل مرةٍ يتأذّى بسببها، فموقفه الجميل معه أكثر من مرّةٍ وتفهّمه له بالكلمات فقط مع عزلته عن الباقين واكتفائه بالعلاقات السطحية معهم جعله يُعزّ ليون أكثر، فهو يعتبره صديقه الوحيد الّذي يمكنه أن يتصرّف معه أحيانًا على طبيعته دون ادّعاء، ومن المواقف التي تظهر بها سخرية الحياة أنّ هيثم عندما أخبر الجميع عن مرضه وإصابته بالاكتئاب كانت نيّته أن يتصرّف الطلاّب معه بلطفٍ ويحاولوا أن لا يشعروه بالغرابة فجرى العكس تمامًا! فماشاهم بحكم عقليته والذّنب يأكله دون أن يدري بأمره أحد، وبالعودة لذلك اليوم، ليون قال: "لم أعلم أنّك ستصل لهذا الحدّ"

ليجيب الآخر: "كنت أحذّر الطّلاب وحسب"

فليون قال ذلك عمدًا مترصّدًا حركاته ونبرته وجوابه الّذي فيه نوعٌ من التّبرير، ليفهم ما كان يبتغي من فعلته، ويبدو أنّ إياد هو الوحيد الذي فهم مقصد هيثم، أو ربّما لم يفهم أصلاً فتصرّف بطيبةٍ وحسب.

***

قال ليون بعد أن لاحظ تجهّم هيثم: "هل أرهقك الماراتون لهذه الدرجة؟"

رفع هيثم رأسه ليردّ عليه بهدوء: "كلاّ، فقط بعض المشاكل.."

-"مشاكل؟ أهي جدّتك؟"

-"كلاّ بل والدي أنا أظنّه مريضًا فأمسُ كان شاحبًا جدًّا ووزنه قلّ بشكلٍ مفزع"

ابتسم ليون واضعًا يده على كتفه ليلتفت الآخر له ويكمل: "لا تقلق والدك سيكون بخير، عليك أن تدعمه كما اعتدت دومًا فابتسامتك هي حرفيًا سرّ سعادته"

لم يرد عليه بل اكتفى بالتنهّد وإرجاع رأسه إلى مكانه ليتركه الآخر غريقًا في أفكاره اللامتناهية.

بالنّسبة لليوهارد فقد قرّر أن لا يذهب لعمله اليوم، بدلاً من ذلك اصطحب ناتالي معه على أساس أنّه شكرٌ لمساعدتها له، وتلك قصّةٌ أخرى جمعت سعادة ناتالي بموقفه وهي من تحبّه منذ أيام المتوسط حينما كان لازال يدرس في إسبانيا، ذلك الحبّ كان ممزوجًا بحزنٍ عميق في روحها لسبب آخر متعلّق بليوهارد.

«غريبٌ أمر هذا العالم، لا أحد يتصرّف كما تملي عليه مشاعره ومعتقداته بل يقيسون تصرفاتهم برأي النّاس ومجموعة قوانينهم الوهمية.. أظنّني الوحيد الذي يتصرّف بعفوية، وهل ذلك خطأ؟ ألهذا لدى الناس انطباع مختلف عنّي؟، لا يهمّ أنا سأبقى هكذا... مهلاً هذا جواب! أنا الصّادق وسط الكاذبين».

الفصل الثالث عشر: بطلي

خارج مكان وزمان أحداثنا، وتحديدًا في 'إشبيليا' أحد مدن اسبانيا، البلد الأصلي لعائلة 'إيمانويل'، هناك حيث قضى ليوهارد معظم حياته منذ أيام المتوسط ليدرس بواحدةٍ من أفخم مدارسها فلا يدخل تلك المدرسة سوى أبناء الطبقة الراقية مثله أو أقلية النابغين في البلاد، وتلك حالة ناتالي أو سالي كما يناديها الجميع..

ناتالي ليست بالغنيّة بل بالعكس تمامًا فقد كان واضحًا أنّها من أبناء الطبقة الفقيرة ما جعلها عرضةً للاستحقار ممّن يرون أنفسهم فوقها بمراحل، إلاّ أنّ تلك الشابة لم تبالِ بكلامهم، بل لم تظهر لهم سماعها له حتّى، فكانت وحيدةً في أروقة المدرسة الفخمة وأمّا ليوهارد فكان محبوبًا لسببين، الأول قيمة اسمه في المكان والثاني لطفه ولباقته مع الجميع، فهو لاحظ ناتالي ليكون الوحيد الذي يسلّم عليها كلّ صباحٍ بينما كانت هي تردّ عليه باستغراب، إنّه ليس كباقي الطلاّب بل هو أكثر تواضعا منهم، لذا فهو الوحيد الّذي لم تكرهه.

أمّا أوّل حديثٍ جمع الحسناء ذات الشعر الحريري بلون التوت المسدل على عينيها الزمردتين، واليافع النّابض بالحياة كان يوم انخرط الطّلاب في ثنائياتٍ لأجل مشروعٍ دراسيٍ فوجدت ناتالي نفسها وحيدةً وهي من يمقتها الجميع عكس ليوهارد الذي تهافتت عليه الطّالبات لكنّه رفض الجميع وتوجّه إلى ناتالي ليطلب منها أن تكون شريكته في هذا المشروع،

فما كان منها سوى أن توافق بصدمةٍ تعلو ملامحها الكئيبة، وفي الأخير اتفّقا على ميعادٍ ليوم الجمعة بالمكتبة.

حان الميعاد لكنّها لم تَحضر!، ما ترك ليوهارد في حيرةٍ وقلقٍ بنفس الوقت، أو ليست هي من قّررت هذا الميعاد وأجّلته حتى اليوم لتتغيّب فجأة؟.

وفي اليوم الموالي طلع النّهار ملقيًا بأشعّة شمسه الذّهبية على الصف، فدخلت مدرسة المادة تطالبهم بمشاريعهم، أحْنَت ناتالي رأسها حينما تقدّمت نحوها لتسألها: "أين مشروعك يا آنسة؟ "

-"الحقيقة.. لم..."

قاطعها صوت ليوهارد الّذي قفز من مقعده وقال: "إنّها شريكتي يا أستاذة، ها هو مشروعنا! "

-الأستاذة: "وأين نسختكِ ناتالي؟"

-ليوهارد: "ها هي، لقد نسيتها أمس يا ناتالي هه"-أطلق ضحكةً بلهاء علّه يخفي كذبته لتردّ الأستاذة: "حسنًا إذن"

كان استغراب ناتالي كبيرًا لكنّها أخفته عندما غمز لها ليوهارد حتّى تتماشى مع كذبته تلك، فهي لم تكتب فيه كلمةً واحدةً بل هو من كتب البحث مرتين وبخطين مختلفين من أحد عمّال بيته مقابل زيادةٍ في راتبه، كما كتب اسمها على إحداهما ليكمل خطّته وتنجح، ذلك ما أشعر ناتالي بالذّنب والإعجاب الشّديدين بموقفه ذاك..

ثم دقّ الجرس ليخرج الطّلاب جميعًا ما عدا ليوهارد وناتالي وكأن كلاً منهما توقّع أنّ الآخر يريد أن يكلّمه، فيبتدأ هو بالكلام:

-"هل أنتِ بخير؟ لِم لَم تأتِي أمس؟"

-"أنا آسفة"-مازالت توجّه نظرها نحو الأرض

-ليوهارد: "لا عليكِ لم آتِ لألومك.. مهلًا أتبكين؟ "

-"لست أبكِي"

-ليوهارد: "متأكّدة؟"

لم تستطع مقاومة دموعها فانهارت بالبكاء فجأة، فما كان من ليوهارد سوى أن يسارع يحاول مواساتها قائلاً: "صدّقيني لا بأس! لم أقصد أنا آسف"

-"لست أنت فقط... فقط... "

-"حسنًا تعالي فلنخرج من الصّفّ لتستنشقي بعض الهواء النّقيّ"

أمسك بيدها وذهبا خلف المدرسة حيث لا يوجد أحد هناك، حيث انتظرها برهةً من الزّمن حتى تهدأ وتُفرغ قلبها علّها تنال بعضًا من الراحة، ليناولها منديلاً حتى هدأت وقد احمرّت عيناها بينما يراقبها الآخر في صمت..

بعد أن هدأت سأل ليوهارد: "هل تشعرين أنّكِ أفضل؟"

-"أجل، أكره أن أبدو ضعيفةً لكنّي لم أعد أتحمل"

-قال بتعاطف لا يجيد إخفائه: "لماذا؟ ما الّذي يحدث معك؟ "

رفعت رأسها بهدوءٍ نحوه، هو الذي اعتلته نظرة حزنٍ لحزنها وتحجّرت العبرات في مقلتيه رأفةً بحالها..

-ناتالي: "سأخبرك لمَ لم آتِ أمس، ذلك أنّ أمّي أصيبت بوعكةٍ صحّيةٍ وهي مريضة قلب"

-ردّ بصدمةٍ وقلق: "هل هي بخير؟ أتحسّنت؟"

أخفضت رأسها بحزنٍ وقد تغرغرت عيناها بالدّموع من جديد لتقول: "للأسف لا، هي بحالةٍ سيئةٍ وإن لم تخضع لعمليةٍ فلن تعيش، من أين لي أن أدفع؟!"

-"أنتِ وحيدة؟"

-"أنتَ لا تعرف القصة صحيح؟ لمَ الجميع ينادونني سالي.. "

-قال ببلاهة: "ظننته اسمكِ الثاني"-ضحكت الأخرى بهدوء على كلامه فهي لم تتوقّعه والحقيقة أنّه من الصّعب توقّع أفعاله فهو ينطق ثم يفكّر بما قاله..

-ناتالي: "ربّما في قصتي شبهٌ لسالي فقد كنت ذات يومٍ بنفس مستواهم المالي، حينها كنّا نتكلّم بشكلٍ طبيعيٍ واستمررنا في ذلك حتى قُبَيلَ نهاية السنة الفائتة، ذلك بعد أن فقد أبي ثروته بين ليلةٍ وضحاها، فهو يملك شركةً للتصدير الجوي إلا أنّ إحدى طائرات البضاعة تحطّمت مخلّفةً خسائر ضخمة بسبب نوع البضاعة الّتي حملتها والتي انتهى المطاف بها بالبحر"

-"لكنّه ليس ذنبه فالحوادث تحدث! "

-"أجل، لكنّ أبي هو المسؤول عنها لذا انتهى به الأمر بتعويض الخسائر من ماله الخاصّ، ما جعله يقع في أزمةٍ انتهت بإفلاس الشّركة وانسحاب المستثمرين، حينها تغيّر كل شيء.. "

أخذت نفسًا طويلا قبل أن تكمل وكأنّها ترمي همومًا لم تشاركها مع أحدٍ لتقول بحسرة: "لم يستطع أبي تقبّل الخسارة التي لقيها فلجأ للكحول والمخدّرات رغم تحذيرات أمّي المتواصلة له، لنقع في فقرٍ مدقعٍ بعد أشهرٍ لصرفه النقود لأجلها إلى أن أصابته نوبةٌ في يومٍ من الأيام بسبب جرعةٍ زائدةٍ وفارق الحياة"-نزلت بعضٌ من دموعها المكبوتة في عينيها بينما لم يجد ليوهارد ما يفعل سوى وضع يده على كتفها علّه يحمل عنها بعضًا مّما أثقل كاهلها، لكنّها أكملت وهي تعضّ على أسفل شفتها بسبب القهر الّذي تحسّ به: "كلّ من في هذه المؤسسة تظاهروا أنّهم لا يعرفونني، حتّى من ظننتهنّ صديقاتي صِرْن يتنمّرن عليّ لأنّي صرت فقيرة وكأنّي لم أكن معهم يومًا، بل وكأني لست طالبة مثلي مثلهنّ! حاولت تجاهل كلّ شيء لكنّي لن أستطيع تحمل فقدان والدتي هذه المرّة"

نهض ليوهارد من مكانه وأخذ نفسًا عميقًا! بعد أن مسح الدّمعتين اللتين تسرّبتا من زمرّدتيه، ثم مدّ خنصر إصبعه نحوها قائلًا: "عديني أنّكِ ستتخرّجين عن جدارةٍ وتصيرين ناجحةً كما كان والدك! "

تفاجأت من موقفه لكنّها أحبّت الأمر فمدّت خنصرها لتعده فأكمل وابتسامةٌ عريضةٌ تملأ فاهه: "إذن أعدكِ أنّي سأقف معكِ في أشدّ المواقف ظلمةً! "

ضحكت هي الأخرى على كلامه ووافقت، ثم عادا للصّفّ بهدوء..

لم تعتقد ناتالي أنّه سيفي بوعده حقًّا فظنّت يحاول تحفيزها فقط، إلا أنّها وبعد يومين بالضّبط صدمت بأنّ أمّها ليست في المشفى لتظنّ أنّه تمّ طردها بسبب عدم قدرتها على دفع مستحقّات المشفى ولكنّ حزنها انقلب لفرحةٍ حالما علمت أنّ أحد الأطباء تولّى عمليتها وستدخل غرفة العمليات عمّا قريب!

ها قد فرح قلبها بعد حزنٍ دام لمدةٍ طويلةٍ حتّى نسيت كيف تضحك، وبقيت في مقاعد الانتظار تتأمّل اكتمال فرحتها فقد كان لها هذا، ليخرج الطّبيب معلنًا عن نجاح العملية، فشكرته على فضله ليردّ بتعجّب:

-"هذا عملي يا آنسة، ستبقى لمدّة شهرين كأقصى حدٍّ بحسب ما دفعتم مع أنّها لا تحتاج البقاء لتلك المدّة"

مهلاً ذلك الطّبيب لم يقم بالعملية لطيبة قلبه بل لأنّه أُوجر على ذلك!

فقد خاطبها على أساس أنّ والدها هو الذي دفع!.

مازالت غارقةً بأفكارها ليقطع شرودها رجلٌ أربعينيٌّ خاطبها بكل احترامٍ ومع بعض الكلمات أيقنت أنّها تعرفه، فقد كان أحد مساعدي والدها المتوفىّ، جلسا لبرهةٍ على مقاعد الانتظار ليخبرها أنه هو من دفع للعملية وسيتولى تسيير أموالها من الآن وصاعدًا فقالت متعجّبة: "وهل لي أموال؟ "

-"بالطبع!"

أجاب بتوتّرٍ ثم غادر فجأةً فلم تفهم ناتالي ما يجري فها هي حياتها تنقلب رأسًا على عقبٍ من جديد، وقد عادت لها والدتها سالمةً وبيتهم القديم ومكانتها العريقة وسط أسماء الطّلاب! وكم خشيت أنها في حلمٍ حتى لمحت ليوهارد ذات صباحٍ فذهبت له بأقصى سرعةٍ قائلةً: "ما الذي فعلته؟! كيف تغيّر كل شيء؟! "

-"ها؟ أليست تلك نهاية قصّة سالي؟ "

-"ماذا تقول كيف جاء هذا الشّخص فجأة؟ "

-"آم... ذلك أمرٌ يخصّ المُخرج! "

-ردّت ناتالي منزعجةً: "ما هذا الجواب! "

ضحك الآخر على تصرّفاتها ثم قال: "تبدين أجمل بعد أن عادت الحياة لعينيك!"

أحسّت بخجلٍ شديدٍ وسط حيرتها، لتعلم لاحقًا أن ليوهارد كلّم والده ليدبّر صفقةً مربحةً لذلك الشّخص الّذي يكون مساعد والدها مقابل منحةٍ باسم ناتالي، فبدأ حياةً جديدة- بعد وفاة مديره في مجال الأعمال باستثماره أموال ابنة مديره، بالمقابل أدّى ليوهارد دور المنقذ لناتالي ما زاد فخر والده به كونه أول المتبرّعين في مثل هكذا حالات.

قد تتساءل لمَ فعل ذلك ولمْ يساعدها مباشرةً؟

ذلك اسببٍ بسيط، هي من قالت أنّها تكره أن تبدو ضعيفةً وقد يتحطّم كبرياؤها، لذلك قرّر أن يمثّل ذلك الدّور، دور المخرج أو الكاتب لقصة سالي!

مع مرور الوقت صارت علاقتهما أفضل، فقد أكنّت له أجمل المشاعر بعد أن فهمت ما جرى من أمّها فهي لم تقتنع عندما جاءها ذلك الرجل، وعندما روت القصّة لابنتها تضاعف تقديرها لليوهارد وحبّها له كذلك.

«اليوم ولأول مرّةٍ أنا معك ليس كزميلةٍ ولا أيٍّ من هذا القبيل، فقط صديقةٌ أو أكثر من ذلك بكثير...يا ليت ذلك يحدث، كم أتمنّى أن أبقى معك فأنت بطلي».

الفصل الرابع عشر: وداعًا

تمّر الأيّام والشّهور وتترسّخ الذّكريات فينا، لنتبادل الأحاسيس ونعبّر عنها بمختلف الوسائل لعلّ جزءًا من مشاعرنا يصل لمن نستهدفه فيكون ذكرى جميلة لنا.

***

اتّصل ليون بليوهارد ليُعلمه عن فكرة الخاتم، ليعجب بالفكرة فقرّر أن يوصله له عن طريق السّيد محمّد زوج جورية، فما كان له سوى أن يقوم بما طلبه منه.

في المدرسة، على وشك أن يُقبِل إياد على ليون سحبته رحيل بكامل قوّتها بلحظةٍ قبل أن يراهما، ما أبقى إياد مصدومًا لبرهةٍ من هذا التّصرّف الغريب منها على الصّباح..

***

بينما على إحدى الطرق، وُجدت سيّارة عالقةٌ بين الزّحام وداخلها الشّابان، ذاك يتذمّر من حظّه العاثر وتلك تضحك تارةً وترسم تارةً أخرى ما جعل ليوهارد يتساءل: "ماذا ترسمين من الصّباح"

-ناتالي: "أرسم إنسانًا لطيفًا"

هامت بعينيها بين تفاصيل رسمتها ما أثار فضول ليوهارد لسببٍ ما، ربّما كانت غيرة- كونها ترسم إنسانًا ما، ليقول معترضًا: "ما هذه الإجابة؟ أريني"

حاول إمساك الورقة لتخبّئها مانعةً إيّاه من رؤيتها معلّقة: "ستراها، توقّف عن هذا.. تتصرّف كالأطفال! "

زفر ليوهارد كطفل صغير ثمّ قال متأفّفًا: "توقّفوا عن القول إنّي طفل!"

-"حسنًا حسنًا، لا تنزعج! "

- أكمل متذمّرًا: "كنت أريد أن نذهب للسينما والآن بدأ الفيلم ونحن عالقان بين السّيّارات"

-"لنذهب إلى هناك"

أشارت بيدها نحو الجدول الّذي يسري على المساحة الخضراء مقابلهم ليردّ هو: "بجدية؟ ليس حتّى بحديقة!"

-"لا يهم، أريد أن أرسم مقابله مثلما أرى في الأفلام"

-قال باستهزاء: "يا لكِ من طفلة!"

-"هيّا، أرجوك! "

-"حسنا اخرجي من السّيّارة وأنا سأحاول الخروج من الزّحام وركنها في مكانٍ ما"

-"أجل، شكرًا لا تتأخّر"

قفزت من السّيارة كما الطّفلة الصّغيرة إذ يبدو أنّ كليهما طفل، نادرًا ما يرى جانبها المرح والعفوي لتخرج تاركةً إيّاه يتأمّلها مبتسمًا دون القدرة على كبح مشاعره..

إنّه مغرم بها حتمًا!

بينما جلست هي ترسم لوحتها علّها تخفّف وِزر المشاعر الّتي تعتليها، فاليوم يومٌ مصيريٌّ في حياتها وسيحمل أجمل الذّكريات وأتعسها.

***

بالعودة للمدرسة، كانت ردينة محرَجةً بشدّةٍ ولا يخفى على أحدٍ كم هي خجولة، بينما رحيل تكاد تنفجر فقالت بحماس: "اسمع! للتو اعترفت لي ردينة بحبّها لأحد"

-ردّ إياد بضجر: "لهذا سحبتني؟ وإذًا ما دخلي أنا؟"

-ردينة: "يكفي!، أنا محرجةٌ أساسًا"

-إياد: "تخجلين منّي! عيبٌ عليك أنا مثل أخيك! ألم نتربّى معًا؟ "

-ردينة: "بالطّبع أنت كذلك، فقط الأمر محرجٌ جدًّا"

-رحيل: "من الأخير، هي معجبة بليون"

رفع إياد حاجبيه وفتح فمه من الصّدمة بينما خبّأت هي وجهها بخجلٍ شديد لا تدري ما أصابها ليقول: "حسنًا، هكذا إذن.. وداعًا"

-رحيل مستغربةً: "إلى أين؟!"

-"لأخبره بالطّبع"

صرخت ردينة ما جعل الجميع في الرّواق يلتفت إليهم: "لا يا مجنون توقّف!"

-ردّ إياد مصدومًا من قوّة ردّ فعلها: "أمزح ما باللكِ؟"

-رحيل: "ليس الوقت المناسب لتُظهر خفّة دمك!"

-"عجبًا يا مفسدة المرح! المهمّ يجب أن تجدي وسيلةً لتكلّميه مع أنّكِ لا تحتاجين لوسيلة، لديّ فكرة فلتأتيا معي قبل بداية الحصص"

توجّه الجميع نحو الصّفّ إلى حيث ليون الّذي كان يحدّق في هيثمٍ فقد دخل متأفّفًا منذ الصّباح بينما يرمي جسده على الكرسيّ ليستقرّ فيه، تلك ثاني مرّةٍ يفعلها لذا فكّر أنّه يعاني خطبًا ما، أو أنّ قلقه اتّجاه صحّة والده تفاقم، ليقاطع تفكيره صراخ إياد: "ليون!، صباح الخير!! "

-"صباح النّور ولكما أيضا يا فتيات، تبدو نشطًا هذا الصباح يا إياد"

-قال بدون مقدّمات: "لم تعطِ رقمك للبنات، هيّا سأفتح مجموعة واتساب"

-"آه صحيح، كيف خطرت لك هذه الفكرة؟ "

-"لا تسأل خَطرت وحسب"-أجاب وقد اعتلاه توتّرٌ واضح

-ليون مشكّكًا: "حسنا.. بالمناسبة، ردينة شكرًا جدًّا على الفكرة أحبّها أخي جدًّا"

ابتسم بعد جملته الأخيرة فقد كان سعيدًا حقًّا لأنّه نادى ليوهارد بأخي بشكل عفوي، ذلك ما كان يظنّه مستحيلًا قبل مدّة، فوجدت ردينة نفسها تبتسم من جديدٍ لتنطق رحيل كاسرة الصمت: "لنتجمع للدّراسة! لا أريد أن أفشل في امتحانات الفصل!"

-إياد: "نعم!، أوّل مرةٍ تقولين شيئًا مفيدًا"

-صرخت رحيل في وجهه: "اخرس أنت! أصلاً لا تأتِ، أنت غبيٌّ وسنبقى معك دهرًا"

-"أنتِ الغبيّة! "

-ليون: "اهدئا.. أين ندرس؟"-لمْ يباليا له بينما استمرّا في الجدال

-ردينة: "أطفال"

-ليون: "ما رأيكِ أنتِ، هل لديك فكرةٌ أين نجتمع؟ "

-"لا أدري ، لكن ليس في بيتهما فهو جدّ مزدحم، اسألني أنا! "

-"إذن لنجتمع غدًا عندي، أيضًا هناك موضوعٌ أريد أن أكلّمكم بخصوصه"

-ردينة بفضول: "حسنًا إذًا، سأحضُر غدًا.. وها قد دقّ الجرس سأذهب الآن أراك"

لوّحت بيدها بينما تتوارى خلف الباب ويدخل بعدها الأستاذ موبّخًا كُلًّا من إياد ورحيل على صوتهما الّذي يُسمع من الخارج.

***

بالعودة لليوهارد فقد أخرج السّيارة بصعوبةٍ وركنها بالقرب من الجدول ثم استقرّ بجانب ناتالي يحاول أن يعرف من ترسم، بينما استدارت الأخيرة مانعةً إيّاه من الرّؤية فقال بضجر: "هيّا! "

-"دعني أكملّها! لا تفسد الأمر"

-ليوهارد بسأم: "أتريدين زيارة مكانٍ ما؟ "

-"لا"

-ردّ بحنق: "لكنّها فرصتكِ الذّهبية! ألن تعودي لإسبانيا؟ "

-"آه بلى، لكن يكفيني قضاء اليوم معك"

ابتسمت بينما تُكمل خربشة آخر لمساتها لتتوسّع عيناها وتحمل اللوحة مظهرةً إيّاها له، بينما حدّق بها بانبهارٍ فقد رسمته هو على تلك الورقة البيضاء بشكلٍ فاجأه لمدى براعتها: "مذهل! لم تخبريني أنّكِ رسامةٌ بل ورسمتني!"

-قالت بسعادةٍ كبيرة: "أخبرتك أنّي رسمت ألطف إنسانٍ بالعالم"

-"آه هذا جميل، جميلٌ حقًّا"

برقت عيناه من كلامها بينما تجنّبت هي نظراته المباشرة لما اعتلاها من شعورٍ قويٍّ بالخجل إثر ما قالته توًّا: "ما الأمر؟"

-قالت بخليطٍ من الحزن: "لا شيء، فقط أتمنّى لو لا أعود لعملي"

-"فلتستقيلي منه! مُرحَّبٌ بكِ معي دائمًا كريمةً مُكرّمةً"

-ردّت بسرعة: "لا أستطيع، لديّ التزامات، على كلٍّ يجب أن أذهب وعلى فكرة نسيت بعض الأشياء في مكتبك أيمكننا المرور عليه؟ "

-"بالطبع تعالي"

مدّ يده يساعدها على النّهوض لتقول: "اسمع، عليّ الذهاب"

-ليوهارد مصدومًا: "بهذه السرعة! "

-"الطّائرة لا تنتظر"

-قال بخيبة: "حسنا"

ساد الصّمت لفترة، الوداع يا لها من كلمة قاسية.. فهو لم يكتفِ بعد..

مازال يريد أن يكلّمها ويراها كلّ صباح..

'لا تكن أنانيّاً هي أيضـا لها حياتها الخاصّة وربّما هي معجبةٌ بأحدٍ ما لهذا تريد العودة لإسبانيا.. لا يهمّ، شكرًا لك على كلّ حال، على كلّ لحظةٍ طوال المدّة الآنية'.

عودةً إلى ليون، فقد حان موعد الخروج فما كاد يُحدّث هيثم حتّى خرج مسرعًا لذلك قرّر الاتّصال به فيما بعد..

-ليون: "إياد ورحيل لنجتمع في منزلي غدًا إذا أمكن"

-إياد: "حسنًا، لكن ماذا عن ردينة؟"

-ردينة: "وافقتُ سلفًا"

-ليون: "أريد أيضًا أن نبحث بخصوص وعدنا"

قال جملته ثم ألقى بناظره نحو السّيد محمّد، فقد صار يقلّه منذ إصابته وِفقا لطلب زوجته جورية، فردّ إياد على جملته الأخيرة: "أجل فهمتك"

قاطعه صوت السّيّارة من السّيّد محمّد مخاطبًا إيّاهم: "يا ليون، فلتسرع يجب أن أمرّ على الشّركة لأوصل الخاتم لليوهارد"

-رحيل: "هيّا إياد، سنتأخّر عن القطار!"

-ليون: "أيمكنك إيصالهم يا عمّ؟"

-"بالطبع، فلتركبوا"-أشار نحوهم فقبلوا طلبه نظرًا لتأخّرهم بالفعل عن القطار ليركبوا جميعا في السّيّارة الّتي من حسن الحظّ أنها كبيرة..

-محمّد: "سنمرّ على الشّركة أوّلًا، حسنًا يا أولاد؟"

ردينة بنوعٍ من الخجل أو التّهذيب: "على راحتك يا عمّ، شكرًا لك"

-"لا عليك يا ابنتي، لا تقولي ذلك"

-ليون: "أليس الوقت مبكّرًا لأجل ليوهارد؟ "

-محمّد: "اتّصل للتّوّ وقال أنّها ستغادر الآن، فلتوصل الخاتم له"

-"حاضر".

بعد قليلٍ وصلوا وجهتهم؛ مبنى فخم يليق باسم الشّركة وبينما كانوا لايزالون منبهرين نزل ليون وقال: "أيريد أحدكم المجيء معي للداخل؟ "

-إياد: "أنا أريد!"

قفز من مكانه وتوجّها للدّاخل فراح إياد يتأمل جمال المكان وفخامته حتّى ركبا المصعد وهناك وضع رجلٌ -كان داخله عندما ركبا- يده على رأس ليون قائلاً: "يا ولد! لم أرك منذ مدّة كيف حالك؟ "

-ابتسم تلقائيًا لرؤيته وقال: "مرحبًا سيّد بشير، بخيرٍ وأنت؟ "

-"بخيرٍ الحمد لله، تتوجّه عند ليوهارد؟ هو في مكتبه مع تلك الفتاة على حدّ علمي، ليته يفرغ لي بعض الوقت فمشروعي لا ينتظر"

-"بالتّوفيق في مشروعك المتطوّر الغريب الجديد! "

قالها تزامنًا مع فتح باب المصعد ليودّعه بعد ذلك ويكملا رحلتهما بالمصعد فالمكان شاهق الارتفاع فسأله إياد: "من ذاك؟ "

-"المدير التّنفيذي للشّركة والمصمّم الأهمّ أيضًا"

فتح ليون باب المكتب ليلتقي بناتالي تفتّش بين الأدراج، فما إن رأته حتّى انصدمت فكان ذلك واضحًا على وجهها الشّاحب فسألت باستغراب:

"ليون، ماذا تفعل هنا؟"

-"أين ليوهارد؟ جئت أبحث عنه"

-"في الغرفة المجاورة، نبحث عن ساعتي فقد نسيتها هنا"

-"حسنًا"

دخل إلى تلك الغرفة الجانبية وأعطى الخاتم لليوهارد بينما بقي إياد يتأمل ارتفاع المكان الّذي هُم فيه، ليشير إليه ليون ليعودا، فقال متشكّيًا: "مهلًا لم أرَ أخاك"

-"ستلتقيه غدًا، تعال فهذه اللّحظة مهمّةٌ لهما لنعد"

-إياد مستفسرًا: "من هما؟"

-"سأشرح لك في الطّريق، تحرّك!"

نزلا إلى الأسفل حيث انتظرهما البقية ليوصلهم محمّد كلّ إلى منزله ويعود رفقة ليون للقصر.

***

-ليوهارد بيأس: "من المؤسف أنّكِ ستغادرين"

-"فعلاً"

كانت تحاول بوضوحٍ تجنّب عينيه فذلك من أصعب المواقف التّي تمرّ بها، ليقاطعها إمساكه يدها بينما يضع دبلته في إصبعها فتعلّق متفاجئة:

-"ما هذا؟! "

-"شيءٌ بسيطٌ لكي تعرفي أنّي معكِ وحسب"

لم تستطع ناتالي منع نفسها من الضّحك بينما تغرغرت عيناها بالدّموع قائلة:

-"شكرًا، شكرًا لك حقًّا، أنت بالفعل الألطف على الإطلاق"

-ردّ محاولًا الابتسام: "اتّصلي بي لنلتقي في أقرب وقتٍ ممكن"

-"حاضر.. وداعًا"

قالت تلك الكلمة بسرعةٍ بينما تهرول نحو السّيّارة الّتي تنتظرها فتنهّد ليوهارد بعمقٍ لا يعرف لما هو مضطرب.. لقد أراد شيئًا أكثر من ذلك، لكنّه ابتسم مواسيًا نفسه بأنّهما سيلتقيان رغم كلمة الوداع.

الفصل الخامس عشر: عذراء الرّبيع

'الحبّ هو أن تجد ألف سبب للرّحيل فتبقى'

«محمود درويش»

***

فيّ الجمال وفيّ البهاء فمن يراني يُعجب بجمالي، ومن يصادقني يُغرم بشخصيتي..

أجل تلك أنا، أشهر فتاةٍ بالجامعة ومن أُغرم بها معظم الفتيان وغارت منها جُلّ الفتيات، أنا لا أبالغ!

لطالما حظيت بكلّ المجد وقد عملت جاهدةً لتحصيله، فأطلق عليّ النّاس لقب 'عذراء الربيع'، عذراءً فأنا لم أواعد أيّ فتى وما زلت عزباء رغم فرص الزّواج فببساطةٍ أنا لم أحبّ أيًّا منهم، والرّبيع هو الفصل الّذي أبرز فيه كوردةٍ محمرّة الخدّين لامعة العينين كما الألماس تبرقان تلك أنا 'بلقيس'..

أنا لست بغنيّة، فوالدي يمتلك شركةً صغيرةً لكنّها تفتقر للدّعم المادّي ومع ذلك لست بالفقيرة أيضًا، لذا كلّ شيءٍ كان طبيعيًّا في حياتي حتّى ذلك اليوم..

حينما أقبلتُ على تلك الطّاولة الّتي تبدو لي كأنّها قطعةٌ من الجنّة لأنّها تتوسّط الجنان، تحيط به الورود من كلّ لونٍ ونوع قد نسّقتها الطّبيعة، فأنا أعشق الورد والنّبات بشكلٍ عامٍ لهذا فإنّ المقهى الّذي تتواجد عليه تلك

الطاولة كان وجهتي الدّائمة وكانت سفينتي الّتي ترسو على بحر مشاعري، إلّا أنّ قرصانًا قد استولى عليها مع أنّها ليست باسمي، لكنّني من النّوع الّذي يعشق أملاكه!.

حالما رأيتُ المشهد صرخت عليه بدون وعي: "انهض من مكاني يا هذا!"

رمقني بنظرةٍ مفجوعةٍ حينها التقت عينانا..

ظننتني أمتلك أجمل عيونٍ في العالم حتّى لمحت عينيه، فيروزيتان كاسمي وفريدتا اللّون والشّكل، أعترف أنّي تُهت في ملامحه لفترةٍ بالفعل فقد كان وسيمًا بطابعٍ أجنبيّ، بقينا متسمّرين نتأمّل بعضنا لفترةٍ حتّى نطق وأخيرًا بهدوءٍ وصوتٍ بانت عليه الرّزانة: "أعتذر يا آنسة، لم أعلم أنّه مكانك"

-ردّت بعد أن أدركت نفسها: "لا!، إنّه.. حسنًا أنا دائمًا آتي هنا لذا أكره أن يأخذ أحدهم شيئًا قرّرت امتلاكه"

ضحك قليلاً وهل هناك ما يُضحك؟ غير أنّ ضحكته كانت ساحرة، ثمّ نهض من المكان حتىّ آخذه لكنّي لم أرد أن تفترق طرقنا بتلك السّرعة فقلت: "لا بأس، فلتجلس المقهى للجميع"

عاد ليبتسم ثم راح يُحضر مقعدًا آخر ودعاني للجلوس على الجهة الأخرى للطاولة فهي تتّسع لأكثر من شخصٍ أساسًا، لا أدري لِمَ رفرف قلبي من السّعادة ربّما أكون وجدت فارس أحلامي!

ثم تبادلنا أطراف الحديث ويبدو أنّ كلانا مغرمٌ بالطّبيعة، وقد كنت محقّةً فهو أجنبيٌّ عن بلدنا فقد كان أشقرًا من اسبانيا يدعى 'أوليفر'..

أضحيت مع نهاية كلّ يومٍ أسارع لذلك المكان لألقى ابتسامته السّاحرة ولطفه الشّديد فقد أحببته فعلاً، ثمّ مرّت ثلاث سنواتٍ على علاقتنا لكنّنا لم نرتبط بل كنّا نتناقش فقط، حينها كنت قد بلغت الواحدة والعشرين بينما كبرني هو بخمس سنوات، وإن يكن فقد أحببته..

لم أعلم طبيعة مشاعره اتّجاهي سوى اليوم الّذي اعترف لي بدون مقدّمات بحبّه، من صدمتي بقيت أحدّق به مثل أوّل لقاءٍ أتساءل إن كنت أحلم، هل حقًّا سنعيش كروميو وجوليات؟ هل يُعقل أن ينجح حبنّا؟!

والحقّ، أنّه كان رجلًا حقيقيًّا فلم يتردّد في طلب يدي من أهلي الّذين وافقوا برحابة صدر، فكلانا نحبّ بعضنا بشدّةٍ وأيضًا أبي أحبّ هذا الزّواج كون أوليفر ثريًّا وسيدعم حماه بالطّبع!

كنت مستاءةً لذلك لكنّي لم أهتم فالأهمّ أنّ الرّجل الّذي أحببته صار ملكي!

بعدها تزوّجنا لأصير سيّدة القصر، وأمّا بعد الزّواج فلم يُقصّر زوجي اتّجاهي في شيء، لكنّنا اختلفنا في بعض الأمور بسبب غيابه المستمرّ عنّي فتارةً يقول عملي وتارةً أخرى يجد سببًا مختلفًا، مع ذلك كتمت غيضي لسنتين خلالها كنت أحسّ بالوحدة لغياب زوجي وعدم امتلاكي

لأطفالٍ فكنت أحدّث جورية حينها كانت أصغر منّي بسنة، لكنّني لم أحبّها يومًا مع أنّها كانت طيّبةً جدًا، وقلبها رهيف، لكنّها تعرف عن أوليفر الكثير حقًا! من تكون على كلّ حال؟!

وازداد حنقي مع الوقت لغيابه المستمرّ، أنت ملكي! أنت زوجي! إلّا إذا كنت تخونني! لقد كنت متأكّدةً من ذلك، وفي ذات يومٍ كنت أهبط الدّرج لألّمح ما أثار غيرتي كأيّ أنثى، كنّا متشاجرين ذلك الصّباح وبعد أن هبط للأسفل صار يكلّم جورية ويضحك! أنت تضحك؟!

لم أتمالك نفسي، فهبطت مسرعةً وصفعتها من دون تفكير، من تلك لتحدّث زوجي؟!

صرخت فيها بجنونٍ والغضب يتطاير شررًا من عيوني: "من تظنّين نفسك؟! أنتِ مجرّد خادمة!"

تدخّل أوليفر يبعدني عنها ولأوّل مرّةٍ منذ عرفته يصرخ عليّ، كيف يجرأ؟ علا صوتينا في القصر بأكمله وأنا أصرخ: "إنّك تخونني اعترف! أعرف ذلك، لست غبيّة! "

-"من أين تأتين بذلك؟، بلقيس أرجوكِ كيف سأخون المرأة الّتي أحبّها؟ وجورية متزوّجة!"

ثمّ ظلّ يهدّئني طول اليوم، فاستغللت الفرصة لمدّةٍ طويلةٍ ومع كلّ غيابٍ ألومه بشدّةٍ حتّى يبقى معي فترةً أطول، ذلك حقّي إنّك ملكي!

ثمّ في ذلك اليوم رافقته لمقابلةٍ تلفزيونيةٍ كالعادة، فمستحيلٌ أن يبتعد شبرًا عنيّ،

حينها تلك اللّعينة الّتي من المفترض أن تسأله فقط عن عمله، فلمّا تسأله عن نفسه؟ اسأليه عن عمله فقط!

لم أتحمّل، ودخلت في نصف البثّ المباشر أشدّها من شعرها حتى لا تقترب من أملاكي!

وكما هو معهودٌ في عصر التّكنولوجيا، شاعت تلك اللّقطة وأحدثت جلبةً عاليةً في سط الإعلام وازداد شجارنا طبعًا! وكالعادة لا يمكنه أن يطلّقني، فهو يحبّني أعي ذلك جيّدا! تلك هي القيود الّتي لن تتحرّر منها أبدا! أو ذلك ما ظننت...

حتّى ذلك اليوم، حين دخل بهدوءٍ شديدٍ فقلت بلا ترحيبٍ ومنذ متى أرحّب به؟

-"أين كنت؟ أجبني! لِمَ تأخّرت؟ أوليفر! "

-ردّ ببرود: "لا علاقة لكِ"

استشطت غضبا لكلماته تلك، كيف لا علاقة لي؟ لأردّ:

-"ما الّذي تقوله؟"

لن أنسَى ما حييت النّظرة المتحجّرة في عينيه حينما سلّمني تلك الورقة، والتي كانت دعوةً للقضاء بموجب الطّلاق، علقت الكلمات بحنجرتي لأقول والعبرات تخنقني: "كيف؟ كيف؟ ألم تعد تحبّني؟"

-ردّ أوليفر دون النّظر بعيني: "لم تستحِقّي حبيّ أنا آسف، غادري البيت قريبًا"

كلماته كانت صاعقةً ضربت فوق رأسي لقد ظننته يمزح لوهلة، لكنّنا تطلّقنا في أقلّ من أسبوعين! كيف يعقل ذلك؟ لقد غيّرت حياتي والآن ستفعل مجدّدًا ..ولكنّي هذه المرّة، أسقط نحو الهاوية..

كم ليلةً بكيتُ دون نوم؟ كيف تخلّى عنّي؟!

ولم يزدني سوى والدي، أوقف أوليفر دعمه لوالدي ما جعله يغرق في ديونه فانهار عمله لأكون أنا الملامة، عشت كالأسيرة مذلولةً في بيت أبي بسببه!

ثمّ في يومٍ كئيبٍ جاء والدي سعيدًا للغاية قائلا: "يا فتاة فلتجْهزي غدًا أنتِ عروس! "

مهلاً! ماذا؟، كيف لم يشاورني أحد؟ زوّجني أبي ليمسح عاري بالطّلاق، ويطوّر أعماله، لقد زوّجني برجلٍ لعينٍ أكبر منّي بثلاثة عشر سنة!

فوجدت نفسي بين ليلةٍ وضحاها في رحمته! انتقلت من سجنٍ إلى آخر..

لم أحبّه يومًا، أنا لم أستطع تخطّي أوليفر يومًا..

أمّا هذا الزّوج الجديد، فقد كان أحقر المخلوقات على الأرض!

بالنّسبة له، أنا كالدّمية يتفاخر بي بين أصدقائه!

وكم امرأةً دخلت غرفتنا أمام ناظري، خانني مائة مرّة أنا وكلّ النّساء في القصر سواسيةٌ عنده! كلّنا دُماه أمّا أنا فللاستعراض!

لم أقبل ذلك طبعًا ولكنّي لم أستطع الكلام، فبمجرّد أن أفتح فمي يضربني دون رحمة، ففي كلّ مرّةٍ تفيض دمائي وتتكسّر أضلاع جسدي المزرقّ!

عشت العذاب بعينه وكلّه بسبب اللّعين أوليفر ولم يزدني همًّا سوى أنّي حملت من ذلك اللّعين وأنجبت ولدًا كان طبق الأصل عنّي لكنّي لم أحبّه يومًا، هو ابن من كرهته حتّى الصّميم، لم أهتمّ به ولا والده فهو لم يره يومًا حتّى إلى أن بلغ السّنة والنصف وقد ترعرع بين الخدم، في ذاك اليوم دخل والده ليرى 'عبد الرحمن' أباه أوّل مرّةٍ فتوجّه الطّفل نحوه يريد احتضان الأب الّذي لم يره يومًا، غريزته أخبرته أنّ ذلك والده، ليدفعه ذلك الوحش رغم فارق الحجم بينهما بينما أنا أراقبه بصمت تعلّمته منذ دخولي لهذا البيت..

لكنّ صغيري كان عنيدًا فنهض مجدّدًا يتعلّق برجل أبيه يريد أن يحمله بكلّ براءة، أمّا هو فقد رمقه بتلك النّظرات الّتي أعرفها جيّدًا... نظرات الاستحقار الّتي ينظرها لي قبل أن يرفع يده عليّ..

أسقطه الأب بعد أن دفعه بقدمه، لينوي الدّوس على ابنه الّذي لم يبلغ السّنتين!

لم أستطع التّحمّل شيءٌ ما أيقظني لأرمي نفسي بينهما بلا وعي، حينها أطلق ذلك المختلّ ضحكةً لم أفهم معناها، ثم صار يركلني مستهدفًا الولد بينما طوّقته بجسدي: "ابتعدي يا لعينة! سيحين دوركِ لاحقًا! "

بقينا مدّة بتلك الوضعية دون رحمةٍ بحيث واصل المجرم جرمه، وكيف لا وهو بتلك الحقارة؟ رجلٌ بلا قلب!

مرّت الدّقائق كالسّنين حتّى ابتعد بعد أن ملّ من لعبته تلك بينما بقيت أبكي وأحتضن ولدي، لا يمكنني أن أتركك تحت رحمته، بعد أوليفر لم أعرف

طعم الحبّ ولا لونه لكنّك منحتني الأمان يا من كنت جزءًا من جسدي ومعشّشًا في رحمي، أنت وحدك دون الكلّ تستمع إليّ ولا تخالفني وأرقى تطلّعاتك إرضائي، لم تعصني يومًا، لقد كنت دوائي.

«كنت الوحيد الّذي امتلكتُه والوحيد الّذي يقف معي مع ذلك الوغد والوحيد الّذي يواسيني ويمسح دموعي ويداوي جروح قلبي وجسدي المحطّم..

لا يمكنني أن أخسرك فأنت ابني والوحيد الّذي أحبه قلبي، لا من قَلب حياتي وكان سببًا في ضياعها ليعيش مع امرأةٍ أخرى، ولا من اعتبرتهم أهلي فرموْني وجعلوني المذنبة..

تعلّم، لازلت أعد نفسي عذراءً فأنا لن أعطيَ روحي لأيّ رجل».

الفصل السادس عشر: عائلة

مهما كان وقع اسمك كبيرًا، فنحن لا نحبّ الإنسان لاسمه بل لمن يكون ..

عاد الكلّ لبيته تلك اللّيلة يحتضن فراشه لبرودة الجوّ في عزّ فصل الشتاء، وكان منهم ليوهارد الّذي دخل غرفته دون قول أيّ كلمة، ذلك جعل جورية تقلق بشدّة عليه فقالت: "لا يبدو بخير، ترى هل اعترف ورفضته؟ "

-ليون: "أنا متأكّدٌ أنّه لم يعترف مع أنّي ظننتها تبادله الحبّ أيضًا، ربّما هي مجرّد مدّةٍ وستعود مع أنّي لست مطمئنّةً لتلك الفتاة، هي بلا شكّ تخفي شيئًا بين طيّات ابتسامتها"

-"لا تقُل ذلك! أرجو أن يكونا معًا"

-ليون ممازحًا: "تريدين أن يعيشا قصّة حبٍّ مثل قصّتكِ؟ "

-"قصّتي جميلة وانتهت بزواجٍ سعيدٍ وعائلةٍ دافئة، أريد ذلك لهما أيضًا يا ليتني أرى ليوهارد عريسًا حقّق لي رغبتي يا الله"

-ردّ ليون بسخريةٍ منها لحبّه إغضابها: "عريسًا؟ لا تتحمّسي أيّتها المراهقة، تبدين كفتاةٍ مغرمة بالمسلسلات الرومنسية! "

-ضربت رأسه بضيقٍ ثم أكملت: "أنت لا تفهم سعادة الأمّ حالما ترى أحد أبنائها يمسك بيد عروسه يوم زفافهما، آه كم أريد رؤية هذه اللّحظات للكلّ!"

-"حسنًا يا أمّ! ، سأذهب عند ليوهارد"

-"لماذا؟"

-"لا أدري، أحسّ أنّه يريد أن يقول شيئًا"

-"كما تريد، اهتمّ بأخيك"

كانت تضحك وهي تقول آخر كلماتها بينما اكتفى هو بمراقبتها دون أيّ حركة، ثمّ توجّه للأعلى حيث ليوهارد بنفس المشهد يريد أن يواسيه كما فعل هو قبل أن يناديه بأخي!

استأذن للدّخول أوّلاً ووجده مستلقيًا على سريره والتّعب واضحٌ عليه، مع أنّه لم يبذل جهدًا كبيرًا إذ يبدو أنّ روحه هي من أُرهقت.

-"كيف حالك؟"

-"لا أدري، أحسّ أنّ روحي تريد الهرب من جسدي! شعورٌ فظيعٌ يعتريني والمشكلة أنّي لا أدري لمَ أنا هكذا"

بقي يرمقه ببعض النّظرات ثم جلس على جانب السّرير وقال مواسيًا: "لقد أرهقت نفسك منذ وفاة والدنا والآن ظهر عليك ذلك، ماذا جرى حتى فقدت رباطة جأشك؟ أهو بسبب رحيلها؟ "

-ردّ بتعب: "ربّما تكون محقًا، وجود ناتالي كان يدعمني الآن أحسّ بالوحدة"

رمقه ليون بنظرةٍ كئيبةٍ كمن عاهد ذلك الشّعور حتى الوفاء!

لتمرّ لحظات صمتٍ قبل أن ينطق ليون: "الوحدة.. فلتخرج منها إنّها لا تناسبك"

-ردّ بحزن: "ليتني أستطيع، تعلم هذه السّنة فقدت والدتي ثم والدي والآن ناتالي! "

-"هل فقدتها؟"

-"أردت إسعادها لكنّي أبكيتها بدلًا من ذلك، كانت متضايقةً كما أنّها أقَرّت بالوداع دون فرصةٍ للّقاء، ذلك يخيفني أخاف أن أفقدها أيضًا! "

زفر ليوهارد بعد اختتام جملته وكأنّ كلّ همومه تريد الخروج، ثم مسح من عينيه الدمعة التي تغرغرت فيهما ليقول ليون: "تعلم، أنت طيّب ربّما لم نتّفق في البداية لكنّي لا أريد أن تبقى هكذا، لا تغرق في دوامة أفكارك لست من هذا النّوع! "

-"لكنّي مضطربٌ حقًّا هذه الفترة كيف لي أن لا أقع؟ "

-ابتسم بلطفٍ ليقول: "فلتمنح نفسك بعض الرّاحة أيضًا كلانا ليس وحيدًا، فأنا ما زلت هنا وأنت ما زلت هنا! "

-ليوهارد مبتسمًا: "ماذا ستفعل؟"

-"أُعِدّ الزّعتر، أُحضِّر خاتمًا، وطبعًا أنعتك بالطّفل ولا تنسى أُعزّي الأبواب التي تكسرها كل فترة!"

ضحك الآخر على كلامه بشدّةٍ فهو لم يتوقّع ردّه ليقول:

-"أأنت قادر على ملء الفراغ في روحي؟ "

-ليون: "أريد ذلك بشدّة، صحيحٌ تذكّرت أصدقائي سيحضرون غدًا لا بأس صحيح؟"

-"الآن أنت من تغيّر الموضوع فجأة! أظنّك تحاول صرف انتباهي عمّا يقلقني وحسب ربّما يناسبك علم النفس، أيضًا لا فائدة من سؤالي عن شيءٍ إن كان مسموحًا وأنت نفّذته سلفًا لكن كما تريد، أظنّني بدوري لن أعمل غدًا"

-"يكون أفضل لك، فلتنم بهدوءٍ ولا تفكر سوى بنفسك"

-"تبدو خبيرًا"-أردف بنبرة ممازحة

-"حسنا اهتمامك ألهمني بعض طرق العلاج، فلتنم ليس جسديًا بل اجعل روحك تستقرّ"

غادر الغرفة بعدها تاركًا إياه في دوامة مشاعره يتأمّل كلّ حرفٍ التقطته أذناه، بينما نزل الأصغر حيث جورية تستعدّ للنّوم:

-ليون: "ظننتكِ قد نمتِ"

-"ليس بعد، هل كلّمته؟"

-"أجل، أُحسّ بالذّنب اتّجاهه.. "

قال جملته بينما أشاح نظره عنها لتمدّ يدها تغرقها بين خصلات شعره الحريرية قائلةً: "توقّف عن الشّعور بالذّنب حيال كلّ شيء! "

لم يرُدّ عليها فاكتفى بالابتسام ثمّ تمنّى لها نومًا هنيئًا ليعود بغرفته، لسببٍ ما كان غير قادرٍ على النّوم تلك اللّيلة، ربّما لأنّه غدًا ولأول مرّةٍ سيحاول البحث عن حقيقة من يكون..

لطالما تجاهل ذلك كونه لا يريد أن يفكر لما أضحى به الأمر لقيطاً؟، خوفٌ ممزوجٌ بنكرانٍ للذّات جعله يختبئ دائمًا خلف قناعٍ مزيّف، فعاش بين الظّلمات يلازمه الأرق، ليس ألمًا هذه المرّة مجرّد فراغٍ وذلك أسوء مخاوفه فهو عاجزٌ أمامه لا يدري سبب أرقه ،فقط،يرغب بالبكاء لكنّه غير قادرٍ على ذرف الدموع، هل تعلم صعوبة أن لا تجد لنفسك تفسيرًا؟ أن لا تفهم ذاتك؟ ولا تعرف نفسك؟

يسألونك: لمَ أنت محطّم؟

ستجيب بلا سبب!

فيرمقونك بنظرةٍ دونيةٍ فأنت تبدو لهم كمن يبحث عن الاهتمام ولا أحد سيفكّر أنّك لا تملكه، خصوصا إذا رأوا المحيط الّذي تعيش فيه، سيرون الثّراء فيُخيّل لهم عالمٌ ورديٌّ لا تدخله الأحزان، ويا ليته كان كذلك!

في آخر اللّيل ستجد نفسك وحيدًا من جديدٍ بل وأكثر وحدةً هذه المرّة!

نعم، ذلك هو المجتمع الّذي يعيش فيه، ذلك ما رآه فيه طول سنواته الستّة عشر لكنه تجاهل الناس جميعًا وتشبّث بوالديه؛ الوحيدان اللّذان يعرفان نوع الوحدة التي تنبش جسده ونوع الغربة التي يحسّ بها بين أقرانه بسبب قضية جهله لذاته وانعزاله عن الجميع ليكرّس حياته لأجلهما، وها هما يغادران تاركين خلفهما ابنًا لا يعرف كيف يبكي ولا كيف يفرغ عمّا يؤرّقه، فهو لا يعرف ما يؤرّقه أصلا! جاهلٌ لذاته ولا يفهم حتّى نفسه! فقط عالقٌ في صفحةٍ سابقةٍ يريد العودة لها بأي طريقةٍ كانت رغم إدراكه أنّ هذا مستحيل، متشبثٌ بماضٍ جميلٍ خوفًا من حاضرٍ مؤلمٍ ومستقبلٍ مرعبٍ كونه مجهولاً

'لقيط سكنته روحٌ غريبة عنه' ذلك هو وصفه لنفسه.

***

بعد ليلٍ طويلٍ على من لم تدقّ عيناه النوم، نهض بتثاقلٍ ثم أخذ نفسًا عميقًا وهَمّ يهبط الدّرج متناسيًا ضيق صدره لكنّه سرعان ما دخل في نوبة سعالٍ بسبب مرضه كادت تسقطه من ذلك الدرج الطويل ولكنّ ليوهارد أمسكه من ذراعه لينسى السّعال ويصرخ بسبب ألم كتفه الأيمن: "هذا مؤلم! اتركني!"

صرخ بعد أن استعاد توازنه، ليجيب الآخر بتوتّر: "آسف! لم أقصد، سحقًا لا شيء يفلح معي! "

ردّ متجاهلاً ألمه: "لا تتشاءم على الصّباح، تفاءل وقل صباح الخير"

-"صباح النّور انقلبت الأدوار أم هذا أنا؟ متأكدٌ أنّه عليك نزع الجبيرة؟"

-"لا عليك، اترك يدي وحسب أكره الجبائر، أيضًا اِسأل جورية عن عدد العظام التي كسرتها في مسيرتي المهنية"- قال جملته ضاحكًا معه ملطّفًا الجوّ ليهبطا معا نحو طاولة الطّعام تمامًا كما أفراد العائلة الواحدة.

-جورية: "ليوهارد تبدو نشيطًا اليوم عكس مساء أمس"

-"لست من النّوع الذي ينهار بسهولة، كما أني نمت أمس كالطفل الصغير!"

قال جملته بينما يبتسم بغطرسةٍ ليردّ ليون ساخرًا: "من أنت؟ أين اختفي ذلك الطفل المرتجف الذي لا يحب الزعتر لأنه مرّ! "

-"اصمت أنت! دائما تخرّب لحظات مجدي"

ضحكت جورية عاليًا عليهما لتعلّق:

-"هذه الأجواء العائلية جميلة!"

عائلية..

فعلًا مع فهم كلّ واحدٍ منهما لأحاسيس الآخر، ليون تقبل ليوهارد عندما اقتنع بصدق نيته، أما ليوهارد فقد رأى جانبًا لطيفًا من ليون بعد أن ظنّه كئيبًا وهو كذلك، لكنه لا يريد أن يسبب له قلقًا ما جعل كليهما يرغب في معرفة المزيد عن الآخر أن يعده صديقًا، أخًا، وعائلة..

أخذه السّيّد محمّد لاحقًا للاجتماع الموعود حيث مرا على الثلاثة متوجهين إلى القصر، وهو قصرٌ كما يدلّ اسمه ممّا جعلهم يبهرون من فخامة المكان ظاهريًا وداخليًا كذلك، ثمّ على الباب كادوا يصطدمون بليوهارد ليصرخ ليون: "يا أخي ما مشكلتك مع الأبواب؟!"

-ردّ متذمّرًا: "كلّما أحاول فتحه للدّاخل يفتح للخارج والعكس صحيح! لمَ لا يوجد باب يفتح وحده؟!"

-ليون: "يوجد، يجب أن تجعل أبواب البيت كلّها كذلك! على كلٍّ دعونا نمُرّ"

وجّه كلامه للبقيّة فقال ليوهارد: "معذرة لم ألاحظكم، مرحبًا بكم"

ردّ إياد نيابةً عنه وعن الفتاتين: "ترحب بك الجنة، نعتذر عن الإزعاج"

_ليوهارد: "وإياكم لا إزعاج أبدًا، على كلٍّ سأعود في المساء"

غادرهم بعدها بلحظاتٍ ليكون إياد بالطبع أوّل من يعلّق:

-"لا يشبهك أبدًا أهو مسلمٌ أيضًا"

-"وما الغريب في ذلك؟ وللمرّة المليون أصولنا أجنبية لكنّ عائلتنا انتقلت إلى هنا بعد الإسلام لذا نعم، على كلٍّ دعنا ندخل"

دخل الأربعة متوجهين لغرفة ليون أين بدأوا بمراجعة بعض المواد الدراسية إلى أن حلّ المساء لتغادر الفتيات. لكن داخل أسوار القصر

-رحيل: "أُنظري إلى الحديقة، ما أجملها!"

-ردينة: "فعلاً سبحان المصوّر"

-"دعينا ندخل"

-هزّت رأسها نفيًا لتقول: "لا، مستحيل"

-"بحقّك! سريعًا سنرى فقط"

لم تنتظرها لتدخل الحديقة التي كانت جميلة من كلّ ناحية، ترى فيها أبهى أنواع الزّهور وتستنشق أجمل عطورها، أمّا بالعودة للغرفة جلسا على الطّاولة يأخذان دور المحقّق والشاهد

-إياد: "حسنًا أوّلاً أنت تريد البحث؟"

-"أجل، لا يمكنني تجاهل الأمر للأبد لن أقبل أن أبقى لقيطًا"

-"حسنًا، في البداية احكِ لي كلّ شيء تعرفه عن أصلك"

-"حسنا، التقيت بأبي وعمري لم يتجاوز السّنة ذلك في حادثٍ مروريٍّ قال أبي أنّه لم يجد ناجيًا غيري، فقط رضيعٌ كان أنا ولم يكن في السّيارة أيّ وثائق كما أنّ الجثث تفحّمت ولم يتعرّفوا عليها لاحتراق السّيارة لكنّي نجوت بمعجزة"

-ردّ إياد: "غريبٌ حقّا لكن الله كتب لك عمرًا جديدًا، المشكلة هنا أنّه لا طرف خيطٍ حتّى!"

-"الشّيء الوحيد الّذي قد يدلّ على أصلي هو القرط الّذي في أذني، كان فيها منذ البداية"

-"من الرضيع الّذي يضع قرطًا؟ في الأمر إنّ، دعني أرى"

-ليون: "لا يمكنني نزعه كمّا أنّه مجوّف"

-"مجوّف!، ألم تفكّر يومًا أنّه يحتوي على شيءٍ ما؟ فكّر بالأمر القصة كلّها تبدو مقدمةً لقصّةٍ أكبر"

-ليون: "لم أفكّر بالأمر أساسًا"

فجأة، قاطع حديثهما صوت تحطّمٍ قويٍّ صادرٍ من خلف القصر جعلهما ينتفضان نحو الحديقة..

«لم أجرؤ على التفكير يومًا، لا أتوقع غير أنّه تمّ التخلّي عنّي من قِبَل كلّ العالم ما عداكما، لكنّكما رحلتما بسرعةٍ مع أنّه ليس خطأكما..

إذن علّه ذنبي، كلّما فكّرت في الأمر أجدني ألعن اليوم الذي وُلدت فيه».

الفصل السابع عشر: دموع انتفاضة

أكثر من سيؤذيك هو جانبك الذي يعشق جَلد ذاته..

الصّوت الذي أرعب كيانه صادرٌ عن الحديقة الخلفية للقصر تحت نافذة غرفته، مكانٌ يحمل الكثير من الذّكريات عن المرأة التي يسمّيها أمي..

وصلا على عُجالةٍ ليجدا الفتاتين هناك، وتنهار رحيل بالبكاء فجأةً قائلة: "ما هذا التّمثال اللّعين! كاد يقتلني!"

-إياد: "يبدو مهترئًا، المهمّ أنّك بخير"

-رحيل: "لقد أفزعني! "

- بسخرية: "أنت المذنبة، كان واقفًا وأنتِ جئتِ إليه!"

استشاطت رحيلُ غضبًا من كلامه وهو من قالها عمدًا كي تنسى أنّها كادت تموت، أمّا ذلك التّمثال فكان على شكل فتاةٍ أرستقراطيةٍ كأنّها من العصر الرّوماني تمدّ يدها المحطّمة نحو النافورة الّتي لم تزد قدما عنها، ذلك مألوفٌ نظرًا لطابع القصر العتيق، فما كاد يسقط على رحيل كان جزءًا من يدها التي كانت محطّمة..

وقف ليون يرمق المكان بنفس النّظرة، نظرةٍ تتذكّرها جيّدًا، تلك النّظرة الأولى التي أبداها في أوّل لقاء، ذلك الفراغ في عينيه كما الضّباب زادهما غموضـا وكآبة ليبدو كدميةٍ خاويةٍ من الدّاخل وبنفس السّيناريو وضعت يدها على كتفه متسائلة: "هل أنت بخير؟ "

حرّك مقلتيه نحوها دونما اِلتفات ما جعلها ترتعب لوهلة، ثمّ أجاب بعد تحديقٍ عميقٍ في عينيها: "أجل"

-ردينة: "هل هو الدّوار؟"

-"الدّوار؟ آه تقصدين ذلك اليوم؟"

ضحكت بهدوءٍ محاولةً تلطيف الجوّ بينما عادت عيناه موجّهتان صوب التّمثال المتآكل، في حين أوقف إياد ورحيل صراعهما متسلّلين نحو الخارج ليسمحا لها باستغلال الفرصة الّتي أمامها، لكنّها أوقفت الضّحك وهو مازال شاردًا لتعلّق: "أنت كثير الشّرود"

-"حقًا؟ "

-"ما الّذي يشغلك؟"

عاد يحدّق بها بنفس الطّريقة لكنّه أدار وجهه كاملاً هذه المرّة، حينما يتصرّف بذلك البرود يبدو وكأنّه دميةٌ من فيلم رعب!

-ليون: "أتساءل من أنا؟ "

-استغربت قائلةً: "لماذا؟"

-"ألم تسألي نفسك يومًا من أنتِ؟ دعيني من اسمك فهي مجرّد كلمات أطلقت عليك، من تكون الّروح التي سكنت جسدك؟، بأيّ هدف فعلت ذلك؟، لماذا هي في هذا الجسد حيّة؟ لا يمكنك أن تنادي نفسك ب 'أنا' وأنتِ لا تعين ذاتك ودورك في العالم، كيف ستحدّدين هدفك في الحياة وتستمّرين في العيش؟ "

أربكها كلامه لوهلةٍ لكنّها أجابت بابتسامةٍ تعلو وجهها: "أنا؟، أنا الطّموحة!"

-ردّ باستغراب: "طموحة؟ تعرّفين نفسك بكلمة؟ "

-"نعم، أنا فتاةٌ تسعى لأن تكون جديرةً بتحمُّل المسؤولية كأمّها!"

-"كيف؟"

-"لا أدري، سأكتشف مع الوقت! "

-"وحينها، حينما تحقّقين هدفك من ستكونين؟"

-ردّت بابتسامةٍ واسعة: "هذا بسيط، سأكون من حقّقت هدفها، أوليس من الرائع أن تكون شخصا حقّق هدفا؟! "

-"تجعلين الأمر يبدو سهلاً"

-أردفت بلكنةٍ متسائلة؛ "أنت ليس لديك هدف؟ "

-"أحاول جاهدًا العثور عليه"

أرخى تعابيره في مشهدٍ حزينٍ ما جعلها تنتفض من مكانها لتقول: "لا يمكنك أن تعثر على هدف، وأنت تكره نفسك!"

-"أكره نفسي؟ "

-"أجل أنت دائمًا تلوم نفسك وتحسّ بالذّنب، أنا متأكّدةٌ أنّك تشعر بالذّنب حيال الكثير، لهذا لا يمكنك البكاء فهو رحمة لذاتك الّتي تمقتها، كيف ستجد إجابة ؟! أوّل خطوةٍ لتتخطّى ما مررت به هي أن تسامح نفسك وتقتنع أنّك لست المخطئ!"

كلماتها كانت كالخنجر لقلبه وكأنّها كانت تُعَبّر عن جزءٍ مفقودٍ كان يبحث عنه لمدّةٍ طويلة، بالفعل هو يكره نفسه بشدّة!

-ليون: "كيف قد أسامح نفسي على إيذائها؟"

-"هذه الإجابة عندك فقط جرّب وستجدها، أيًّا كان من تكره نفسك لأجلها"

ابتسم بهدوءٍ ثمّ أردف بذات الهدوء: "ربّما.. شكرًا لكِ"

-"ها، لماذا؟"

-"لم أكن أعلم أنّي أكره نفسي لتلك الدّرجة، لم ألاحظ ذلك أبداً"

-ردينة: "لا تشكرني، أيضًا أنت طيبٌ حقًا"

-"أنا؟! "

-"أجل! إحساسك بالذّنب يعني أنّ لك ضميرًا حيًّا وأكبر دليلٍ على ذلك معاملتك مع هيثم"

-"هيثم؟ كلّكم تستغربون منه لكن هو ليس سيّئًا، لا يوجد شخص سيّء، يوجد شخص يتصرّف بسوءٍ ليفرغ عمّا هو مدفونٌ داخله"

-ردينة بانبهار: "لديك فلسفة حياةٍ غريبة، من في عمرك لا يفكّر بذلك"

-"ربّما كانت محض خزعبلات مراهقين، لكن ليس كلّ من بعمري عاش ما عشته، أو ربّما عاشوه بطرقٍ أبسط، على كلٍّ شكرًا على اهتمامك واستماعك أيضًا أنتِ أيضًا طيّبةٌ حقًا"

-ردينة: "أنا؟ "

-"لا تقلّديني!"

ضحكت قليلاً حتى استوعبت غياب البقيّة عنها، فاستأذنته لتغادر لكنّه أصرّ على مرافقتها إلى حيث البقيّة واقفون، ثمّ ودّعهم ليهامسه إياد:

-"لا تنسى القُرط"

غادر الجميع ليصعد بعدها هو للأعلى، هناك التقى ليوهارد الّذي استوقفه محدّقًا به لمدّة ثمّ قال: "عيونك تحمل تلك النّظرة الكئيبة مجدّدًا، ما الّذي جرى؟"

-ردّ ببرودٍ غاب عنه لمدّة: "لا شيء"

-"بحقّك! تعال..."

ظلّ يدفعه بينما ليون منصدمٌ من فعلته حتّى دخلا غرفته ليقف وقد أغلق الباب قائلاً: "والآن ما بالك؟"

-"أخبرتك لا شيء"

-"بحقّك يا رجل فلتتكلّم وحسب! "

-ليون: "الأمر سخيف، فقط كنت أفكّر بالواقع.. دائمًا أفكّر أنّ والديَّ امتلكا روحًا تريد الحياة، تريد أن ترى أبناءها يكبرون وترحل بحزنٍ لفراقهما، لكنّ روحي لم تتعلّق بسواهما، لطالما تساءلت إن عاش الجسد بلا هدف يدبّ الروح داخله سيكون لا شيء! في تلك الحالة من هو إذن؟ الآن أنا في ذلك الوضع، إذًا من أنا؟ ما هو هدف الرّوح في هذا الجسد؟ هل أنا جسدٌ بلا روح؟ هل أكون مثلك ومثله؟ إن لم أكن كيف أصير حتّى لا أملّ العيش؟!"

-ليوهارد: "ذلك أنّك ترى حياتك بلا قيمة، لمَ؟"

-"لمَ قد أعيش، وأنا من سَلبتُ الحياة ممّن يريدها "

-ليوهارد وقد عجز عن فهم جملته: "سلبت ماذا؟"

-أجاب: "تعلم، لا يمكنني سوى أن أفكّر أنني السّبب في موت والدينا"

-قال بيأس: "ما زلت تقول ذلك؟ فلتشرح لي! لن تخرج قبل أن تُفهمني، لمَ تُنكر ذاتك لتلك الدرجة؟"

راح يزيد الأسئلة ما جعل ليون تحت الضّغط ليشعر باختناقٍ طفيف، ذلك العبء الذي أراده أن يزول، رّبما يكون مستعدًّا لمسامحة نفسه، صرخ لا شعوريًّا بأعلى صوته طاردًا ذلك الحمل من كتفيه: "حسنًا! سأشرح لك، فقط توقّف! "

استبشر ليوهارد بذلك الخبر وجلس على المكتب ناظرًا نحوه بحزمٍ شديد: "تفضّل، لا تقلق سننجو معًا!"

تجنَّب ليون عينيه تمامًا فذلك التّواصل البصري بين من تريد أن تصارحه هو عذابٌ حقيقيٌّ وخصوصًا له.

-"لا أدري كيف ستكون ردة فعلك لكنّي آسف مقدّمًا، سأحكي لك أحداث ذلك اليوم، تلك التّي لم يحكها أبي لك..

قبل حوالي ثمانية أشهر في اليوم الّذي توفيت فيه والدتنا، لم تمت بسبب الحمّى كما أخبرك والدي بل ماتت في الحديقة، أنا لن أنسى ذلك اليوم ما حييت لا يمكنني أن أفكّر سوى أنّني من دفعها، في تلك اللّحظة التي

اندفعت نحو التّمثال الحجريّ المتهالك تستهدف الخاتم الفّضيّ على تلك اليد التي أضحت ملطخّةً بالدماء.. "

-قال متعجّبًا: "دماء؟!"

-"تعرف لعبة الكنز؟"

-ليوهارد: "أجل، أحبّت أمّي أن تلعبها معي عندما كنت هنا"

رسم على محيّاه ابتسامةً مكسورةً ثمّ أخذ نفسًا عميقًا ليُكمل ما بقي في جعبته: "أمّي كانت تحبّ تلك اللّعبة جدًّا ، ليس اللّعبة بحدّ ذاتها بل لأنّها تُذكّرها بك، ربّما بي أيضًا"

اضمحّلت تعابير الحزم من على وجه ليوهارد ليرسم ابتسامةً طفيفةً يستذكر بها والدته الّتي كان شديد التّعلّق بها، لكنّه ما انفكّ حتّى أعادها إلى وجهه قائلاً: "أكمل.. "

-ليون: "في ذلك اليوم طلبتْ منّي أن نلعبها لكنّي لم أرِد ذلك فرفضت طلبها، بينما ألحّت عليه كالعادة ذلك الموقف المتكرّر.. أشعر بالنّدم لكلّ لحظةٍ رفضت طلبًا لها"

كان الاضطراب واضحًا من نبرة صوته، ذلك الشّعور حينما ترغب بالبكاء دونما مقدرةً عليه، لكنّه أحكم قبضته في محاولة بائسةٍ منه للسّيطرة على نفسه المحطّمة ليُكمل وصوته بالكاد يخرج سليمًا: "راحت ترسم تعابير الحزن على وجهها كأيّ أمٍّ يلامسها ذلك الشّعور حينما تدرك أنّ أولادها لم يعودوا صغارًا، لم أستطع احتمال رؤيتها بذلك المنظر فرحت أُراضيها أن هيّا نلعب! فكان لها ما أرادت، ولعبنا بالفعل لغزًا تلوى الآخر.. وتلميحًا تلوى الآخر وهي تقلّد صوت حارس الباب الشّديد عند كل

باب، وصوت الجنّيّة مع كلّ لغزٍ إلى أن وصلنا إلى تلك النّافورة حيث الكنز، كنزٌ مَقيت... "

-ليوهارد بحزم "أكمل لا تتوقف"

-"أحاول.. وضعت الخاتم على يد التّمثال الممدودة، كيف وصلت لهناك حتى! حينها تسلقتُ التّمثال بكل بجاحةٍ.. وأخذتُ الخاتم الفضّيّ من على اليد اللّعينة.. ثم... "-قاطعه صوت صراخٍ في الغرفة صادرٍ عن ليوهارد الّذي مازال متصلّب التّعابير: "توقّف عن المماطلة، انطق!"

كلّ لحظةٍ كانت له سنينًا من العذاب، تلك الرّجفة حينما نقرّر تذكّر ما ينهش فؤادنا، يداه ترتعشان وصوته يزيد اضطرابًا حتّى نطق متحاملًا على نفسه غير قادرٍ على رؤية ليوهارد حتّى! فأكمل مندفعًا:

-"شعرت بيدها تدفعني بكلّ قوّة!، من ثمّة سمعت صوت صراخها الّذي لم يفارق أذناي.. انهار التّمثال فجأة! ما كان عليّ تسلقه! أنا الغبيّ الّذي غفلت فدفعتها لتكون الضّحيّة بدلًا منّي، حينها تحوّل العشب للأحمر القاني بينما افترشته دون رضًا منها.."

«لست خائفًا من ذكريات الماضي، هي لم تفارقني على كلّ حال..

أنا خائفٌ من أن يُدَمّر الحاضر الّذي أعيشه، بأن أكون السّبب في فقدانك أنت أيضًا».

الفصل الثامن عشر: خلف جدار الكتمان

لا يمكن للإنسان أن يتعلّم فلسفةً جديدةً وطريقًا جديدًا في هذه الحياة، دون أن يدفع الثّمن..

«دوستويفسكي»

***

يحسّ ليون بكل شبرٍ من جسده يؤلمه وبالوقت نفسه لا يستطيع التوقّف عن الارتجاف، رغم أنّ الجو دافئٌ لكنّ البرودة تسكن كيانه، هو خائف..
خائفٌ جدًّا.. خائفٌ من أن يفقد أخاه هذه المرّة، بعد كلّ ذلك الوقت وأخيرًا أضحت علاقتهما جيدة والآن تخيّل أن تُخبر أيَّ شخصٍ أنّك قتلت أمّه! ذلك هو موقفه بالضّبط، الكثير من النّدم والأفكار السّوداوية في رأسه، مع أنّه أخبره لكنّه لا يريد معرفة ردّة فعله حتّى..

أضحى واثقًا الآن من صحّة كلام ردينة فهو يكره ذاته لأقصى درجةٍ ممكنة، لوهلةٍ تجمّد في مكانه متّخِذًا جلسةً كئيبةً كمن خسر كل أحبابه في معركةٍ ضاريةٍ توًّا، دنا منه ليوهارد بهدوءٍ إلى أن انخفض إلى مستواه مغرِقًا أصابعه بين موجات شعره الحريريّ، ثمّ تكلّم ليوهارد: "هل تذكر آخر كلمات أمّي؟ "

لم يعطه فرصةً للإجابة بل ردّ على نفسه بنفسه قائلاً: "سألتْكَ إن كنت بخيرٍ ورددْت ب 'نعم'، دائمًا تردّ بنعم حتّى وإن لم تكن كذلك.. حينها أمّي ابتسمت، كانت سعيدةً لأنّ فلذة كبدها بخير"

اعتلت ملامح ليون صدمةٌ واضحةٌ حينما حدّق به مباشرةً هذه المرّة متسائلًا: "كيف لك أن تعرف ذلك؟ "

-"بحقّك! أعلم من البداية كيف ماتت أمّي ولا ألومك بتاتًا بل بالعكس شكرًا لك حقًّا لأنّك جعلت أمّي سعيدةً في آخر لحظاتها، شكرًا لتغطية غيابي لسنوات"

لم يعلّق على كلامه بل راح يفكّر والآن؟

ظننته سيلومني ولكنّه لم يفعل، إذًا هل كان يعرف كلّ شيءٍ من البداية؟

إذًا ممّا كنت خائفًا؟ كلّ ذلك العذاب كان بلا سبب!

تنهّد ليوهارد وهو لايزال يداعب شعره ثمّ أردف: "أعلم أنّك تلوم نفسك على الكثير، أردت أن أشرح لك الأمر من البداية فوالدنا أخبرني كيف ماتت والدتنا، وأيضًا في جنازة أمّي الّتي غبت عنها، كلّمني عنك بأنّك وحيد وهو ذنبهما لأنهما ربّياك وحيدًا خائفين عليك لسببٍ ما، فتعلّقت بهما دون رغبةٍ منك لو تعلم والدي أراد أن يعتذر منك، أتدري لماذا؟"

هزّ رأسه بلا ليكمل كلامه: "ربّما فقدانك عند سفرك، كونك كبرت هو ما جعلنا نأسر ذلك الفتى، ما جعلنا نحتفظ به، بالفعل كان في غاية اللّطف لكن من الأنانية أن تعزل شخصًا ما عن العالم فقط لأنّك بحاجة إليه.. تلك كلمات والدي في الجنازة"

سيول دافئةٌ مرّت على ثنايا وجهه ولأوّل مرّة يضع تعبيرًا بينما تتدفّق الدّموع دونما قدرةٍ منه على التّحكّم بها، ثم صرخ لا شعوريًا صرخةً

حُجزت بكيانه فترة طويلة: "لمَ قد يعتذر! لا تعتذر أرجوك.. لم أعد أفهم شيئًا! من ألوم إذن؟ أجبني! أرجوك أجبني!"

كان مضطربًا حقًّا بسبب كلامه ولأول مرّةٍ بعد وفاة والده انهار بالبكاء مفرغًا عمّا في خاطره، ليضمّه ليوهارد إليه محاولًا تهدئته علّه يخفّف عنه..

حينما تُفضّل الصّمت فإنك ستنهار لا محالة متناسيًا كلّ ما أوهمت نفسك به، لتتذكّر كلّ شعورٍ خالج صدرك في تلك الفترة..

مرّت دقائقُ وهما على نفس الوضعية، إلى أن هدأ قليلاً بين أحضان أخيه الأكبر ليكمل ليوهارد: "آسفٌ حقًا أعلم أنّ ذلك كان قاسيًا عليك لكنّي اتّفقت مع الطّبيب النفسي وجورية على الضّغط عليك عندما تسنح الفرصة لإجبارك على تخطّي الحادثة دون أن نحطّمك باستشارة الطّبيب النفسي.. لكنّها كانت الطّريقة الوحيدة لتستوعب أنّه لا ذنب لك"

-"تقصد أنّه ليس عليّ لوم نفسي، صحيح؟"

-"وهل ما زلت تسأل؟، فلتنهض لنذهب لمكانٍ ما ولنستنشق بعض الهواء المنعش"

-ليون ماسحًا دموعه: "شكرًا لك، حقًا أنت أخٌ جيّدٌ في النهاية"

-ردّ بغطرسة: "وهل ما زلت تشكّ؟ بالطّبع أنا كذلك! تدين لي باعتذار! "

-ليون هادئًا: "آسف"

-"لم أقصد ذلك حقًا!"

ضحك ليون بينما كان يجفّف آخر قطرات دموعه ما جعل ليوهارد يعلّق ساخرًا: "أتبكي أم تضحك؟"

-"كليهما"

-"طيّب كفّ عن النّواح، أيّها الطفل!"

-"حتّى الكبار يحتاجون البكاء، وأيضًا أنسيت نفسك؟! "

-"هل رأيتَني أبكي من قبل؟"

-"أجل! أم نسيت نفسك يوم غادرت معشوقتك تلك!"

-"أيّها الوقح!"

راح يقيّده بيده بينما يحاول الإفلات منه وكأنّهما طفلان يتشاجران على من دوره للّعب بالأرجوحة، بالواقع مثل تلك المواقف كانت دواءً لكليهما..

فجأة، اقتحمت جورية المشهد بدموعٍ هي الأخرى ومنديل تجفّفهم بها: "أنا سعيدةٌ حقًا، أدام الله هذا الحال"

-ليون: "هل أبكيتكِ الآن؟"

-جورية بانفعال: "لا تكن سخيفًا! "

بقيا يضحكان ترتفع أصواتهما في ذلك القصر تارةً من الحزن وتارةً من سعادة، فذلك البيت عرف حدثًا خاصًّا اليوم.

***

هل فكّرت من قبل أنّ تلك اللّحظة السّعيدة الّتي عشتها في ذاك الزّمن المعيّن، تقابلها لحظةٌ تعيسةٌ عاشها غيرك في ذات الزّمن؟

ففي نفس اليوم بل ونفس السّاعة الّتي رأى فيها ليون الأمل كان العكس تمامًا بالنّسبة لهيثم، ففي بيته تعالت صرخات الجدّة على ابنها بينما الحفيد يغلق أذناه من قوّة الصّراخ والتّعب الّذي يخالجه وصوت تلك الغراب-كما يحب تسميتها- يرنّ في أذنه وهي تصرخ: "يا لك من عاقّ! أنا من ربّيتك، من حميتك وكبّرتك، وفي الأخير تريد تخريب أهمّ إنجازٍ في حياتي! "

-ردّ عبد الرحمن مترجّيًا إيّاها: "أمّي أرجوكِ لا تجعلي الأمر هكذا، لا أستطيع أن أسامح نفسي إن لم أعترض! "

-"حتّى لو كان الثّمن خسارة رِضا والدتك؟ "

-"أردف عبد الرحمن بحزن: "آسف لكنّكِ ستسامحينني في النّهاية.."

ختم النّقاش بجملته تلك ليخرج بعدها تاركًا إيّاها تغلي من الغضب وتلعن الخدم بلا سببٍ إلى أن لاحظت أنّ حفيدها خلف الباب مصدومًا غير مدركٍ لما يجري وخائفًا بشدّة على صحّة والده المتدهورة، أمّا عن جدّته فقد جُنّت رسميًّا وزادته صداعًا على صداع!.

حدّقت بلقيس به ببرودٍ مرعبٍ أثار الرّعب بداخله إذ علم أنّ مصدر تلك النّظرات هو الشّيطان القابع بداخلها، ما جعله يتجمّد في مكانه ثم دعته ب: "تعال يا حفيدي"

حفيدي؟ لم تناده هكذا في حياته كلّها! غالبًا ما كانت تناديه بألقابٍ شنيعة كالهمّ أو خيبة الأمل ما جعله يرتاب من تصرّفاتها الغريبة، ولكنّه على كلّ حالٍ جلس مقابلاً لها ما جعلها تتّخذ وضعيةً ملكيةً أطرت عليها هيبةً

وقسوةً لم يعتدها من نظراتها، من هذه؟ أين تلك الغراب المزعجة الّتي يُجَنّ جنونها من لا شيء؟

قاطعت بلقيس جدول أفكاره قائلةً: "بعد قليلٍ ستخرج من هذا البيت بلا رجعةٍ فهو بيتي!"

-ردّ هيثم بغضب: "لكنّه بيت أبي أيضًا!"

-رفعت الجدّة حاجبًا ثمّ أردفت بسخريةٍ ونبرةٍ حادّة: "قال أبوه قال.. أبوك الّذي قتل والدتك ولم يخبرك؟"

-ردّ عليها باستغراب: "مهلاً ماذا؟ "

-ضحكت بخَبثٍ ثمّ أردفت بسخريّة: "آه صحيح أنت لا تعرف من هي أمّك، ولا أنا أعرف صراحةً كيف قرّر ابني تربيتك فجأة، من أين عرفها؟ وهل أنت ابنها أم ابنه أم لا هذا ولا ذاك؟..

المهمّ، كان الاتّفاق أن تعيش هنا مقابل الوفاء من والدك، وكما رأيت والدك أخلف وعده، لذا فلتتفضّل مطرودًا!"

لم يستوعب هيثم ما تقوله بعد ليتفاجأ بالحرّاس الّذين تهافتوا يومًا على حمايته يقيّدونه ويسوقونه بعنفٍ نحو الباب ثمّ يلقون به للشّارع بلا ذرّة رحمة!

كيف أضحى فجأةً بلا بيتٍ أو مأوى؟!

متشرّدٌ هائم تواسيه الأمطار، بالكاد أفلت من سيّارةٍ كادت تدعسه بعد أن رموه في منتصف الطّريق، وهم أضعاف حجمه! حتّى إنّه لم يحاول العودة

فقد جزم أنّ جدته لا تمزح، أمّا عن أبيه فهو غائبٌ كالعادة توقّع يومًا كهذا ولكن ليس بهذا السّيناريو!.

الظّلام الّذي خيّم عليه في تلك اللّحظة كان كفيلاً بأن يغطّي ضوء كلّ مصباح إنارةٍ بالجوار في ذاك الشّارع الخالي، وكأنّ الدنيا كلّها أظلمت في عينه الحائرتين فهو الآن يتخبّط بين حيرةٍ وتعجّبٍ وبين قلقٍ وخيبة.

«نميل للكذب والإخفاء متحاشين الحقيقة فرغم وصفنا لضرورتها وجمالها إلا أنّنا نخاف منها ونهابها، ليبني كلٌّ منا جدارًا حول نفسه يصير سجنًا مع كلّ طوبةٍ تضاف إليه، حتى أضحينا سجناء أقرب للجثث قابعين خلف جدار الكتمان..

يمكنني أن أكون حرًّا.. صح؟ تبدو إجابةً جيّدة، فالحرية صفةٌ لا بدّ أن تتوفر لك لتكون إنسانًا راضيًا عن ذاتك فإن غابت عِشت سجينًا أبد الدّهر».

الفصل التاسع عشر: قصص الحبّ البائسة

أكاد أجزم أنه كُتب على عائلتنا قصص حبّ بائسة تلاحقنا كاللّعنة..

-"أنت ابني فقط، لم تكن ابنه قطّ!"

تعود تلك الكلمات إلى بالي كلّ مرّةٍ أفكّر فيها كيف وصلت لهذا الحدّ؟

تلك كانت إجابة أمّي الوحيدة حينما أسألها عمّا يحق لأيّ طفلٍ أن يسأله:

-"أين أبي؟ "

فتسخط وتندسّ ابتسامتها خلف ملامحها الحادّة ثمّ تلقي نظراتها في كلّ مكان، في حين تداعب شعري بهدوء وتتحجّج بشيءٍ ما محاولةً إخفاء حقيقته عنّي، ولكن أيّة حقيقةٍ هذه الّتي تبقى خفيّةً للأبد؟ كلّما كبرت بالعمر ازداد شعوري بالعار أمام من حولي حينما يصفون ذلك الرّجل أنّه أبي

نعم، تلك هي طبيعة علاقتي بوالدي، لا شيء!

لو كان ميتًا لكان أقلّ وطئًا من رؤيته يجول في قصره متجاهلاً إيّاي باستمرارٍ يسخط على أمّي تارةً بدون سبب، ويداعب الخادمات بنذالة تارةً أخرى فتأتي أمّي مسرعةً تغطّي عيني وتسحبني نحو غرفتي ثمّ تغلق الباب وتكرّر جملتها الّتي حفظتها رفقة سابقتها: "لا تكن مثله!"

-"إلى متى سأختبأ من واقعي يا أمي؟"

كلّما سألتها هذا السّؤال فتحت سياق الدّراسة والنّجاح لأستطيع تطهير سمعة عائلتنا، وقد فعلت فأنا الآن صرت أقتل بنفسي شركائه وما الضّرر بقتل أناسٍ بلا إنسانيةٍ يشاركونه جرائمه البشعة مقابل الرّخاء؟

نعم، كنت راضيًا عن فعلتي تمام الرّضا في البداية لكنّ الأمر أضحى معقّدًا بعد تورّط أبي مع العديد من السّياسيين وقرابة فضحهم وإياه من قبل مجموعةٍ من الصّحافين شكّلوا رابطةً أسموها 'صوت الحق'، وقتها تولّت أمّي أمرهم بحكم أنّهم يفسدون إبادتنا ويفضحوننا فنحن نُعدّ مجرمين كذلك ولو أنّنا ننصر العدالة لكن من نحن لنحقّقها؟

مع الوقت، بدأت أشعر أنّي أُقتل بلا سبب

أبي.. هل صرت رجلاً مثلك يا من أكرهه حتّى النّخاع؟

بقيت في حيرتي حتىّ حلّ ذلك اليوم الّذي لا أدري إن كنت سأدعوه بالأسود أو الأبيض..

يومَ التقيتكِ به..

يومَ عجزت عن ضغط زناد مسدّسي الّذي اعتاد القتل الرّحيم، ظنًّا منِّي أنّه أهون على الضّحية، تبًّا لضميري الّذي يأبى الموت!، حتّى هذا الشّاب الّذي قتل أعتى رجال العصابات عجز عن مقاومة قلبه الضّعيف، قلبه المشفق على مشهد تلك الشّابة الكئيبة الهزيلة غائصة العينين وكأنّها جثّةٌ تعانق طفلها بقوّةٍ بينما تصطنع القوّة في عينيها، كان بودّي لو قلت لها أن

أرخي عنك تلك النّظرات فهي لا تليق بجمالكِ، ولكنّي بدلاً من ذلك وجدت نفسي ألعن اليوم الذي ولدتُ فيه وأرطم المسدّس بكلّ قوّةٍ بالأرض ثم أنظر إليها بشفقة

كيف لا وقد ذكّرني مشهدها بالشّخص الوحيد الّذي أمتلكه والدتي..

بالأصل، لست معتادًا على قتل الشّهود، عادةً يتولّى غيري ذلك لكنّي صادفتها اليوم ويا للصّدفة التي جعلتها تتخذّ تلك الوضعية الّتي تذكّرني بطفولتي البائسة، لذلك تركتها وغادرت غاضبًا بلا سبب، أتساءل هل كنت غاضبًا من أبي اللّعين أم أمّي الّتي جعلت على عاتقي هذه المهمّة؟

أم أنّني ببساطةٍ غاضبٌ من هذه النّسخة الفظيعة الّتي حولت نفسي إليها؟

لا أعلم بالضّبط لكنّ غضبي كلّه زال عند سماع صوتها الرّقيق الهادئ قُبيل خروجي بثوانٍ وهي تسأل: "ألن تقتلنا؟"

-رددت بضحكةٍ ساخرةٍ دون أن أحدّق بها: "لا أستطيع قتلكما، ليس لكما ذنب"

-"إذن لمَ تفعل ذلك؟ أولستَ ورجالك من قتل أخي وزوجته؟"

عضضت على شفتيّ بغيظٍ شديدٍ عندما سمعت كلماتها فهي من أهالي الصحفيين الّذين قتلناهم لنستر أنفسنا، تُرى هل شَعرت بذلك؟

-رددت: "آسفٌ لهذا، أقسم لكِ أنّنا لسنا الأشرار هنا ولا أقصد أنّ أخاكِ هو المخطئ البتّة، فقط نحن ضحايا.. وهو وأنتِ منّا"

-صرخت مغتاظه: "وبماذا أفادني اعتذارك؟! إنّكم تحجزونني هنا منذ يومين، الطّفل في يدي لا يتعدّى السّنتين لم يأكل إلا ما كان باقيًا لي من فتات، هل سترضى بموته؟ أُفضّل الموت مقتولةً على الموت جوعًا في هذا المكان المظلم!

-قلت سريعًا: "سأتولّى بنفسي ذلك"

-"ومن تكون؟ "

-"لا أحد ، يا عزيزتي لا تهتمّي ربّما أقتلكِ بعد دقائق، على كلٍّ لن أدعكِ تموتين إلّا على يديّ كوني مرتاحة"

بطريقةٍ ما انتهى بي الأمر إلى الخروج دون أن أقتلها وقد أوصيت لها ولطفلها-أظنّ-بما يحتاجانه مؤقّتًا ، لكنّي في كلّ مرّةٍ كنت أدخل عليهما أجد نفسي أتفقّد حالهما ثم أسحب مسدّسي فتتّخذ تلك الوضعية السّابقة وكأنها عرفت أنّها نقطة ضعفي، لأستسلم وأرمي بمسدّسي كالعادة بينما تبتسم هي ابتسامة النّصر تلك وتتشرّط بما تريده، لأحضره لها في الغد.

مهاراتها بالمفاوضة أفضل من أيّ مستثمرٍ عرفته يا للنّساء!

-"إنّكِ سجينةٌ هنا لستِ في فندق! "

-ردّت بوقاحةٍ عالية: "أنا أنتظر أن تقتلني منذ شهرين، وإن لم تفعل فلا تتذمّر من طلباتي"

-عبد الرحمن: "أيّ وقحةٍ أنتِ؟ المفترض أنّك مرعوبةٌ منّي! "

-"حقًا؟! تبدو حسّاسًا يا صاحب الضّمير الضّميريّ!"

-ردّ ساخرًا: "تعبيرٌ ركيك، أنتِ عربيّة؟! "

-"لم أطلب رأيك، لست عربيّة ..فقد انتقلت هنا ولاقيتك يا هَمّ!"

قالتها ثمّ عبست بطفوليةٍ متعمّدةٍ جعلت غيضه يتضاعف فاستفزازها له عمدي، هل تلك الفتاة ترغب بالموت؟

-"ما اسمك يا وقحة؟"

-ردت باستنكار: "وقحة؟! تقول هذا لأنثى؟! أنت الوقح! اسمي جود"

-"جود.. اسمٌ جميلٌ لكنّه غريب"

-"أنت الغريب أيّها المتناقض! ما اسمك؟"

-"عبد الرحمن"

-"لا يناسبك البتّة"

-"اخرسِي وحسب أيّتها الشّاحبة شبه الميتة!"

حينها بالضّبط فتحت فاهها فجأةً تعتليها نظرات فزعٍ وخوفٍ شديدين، هل رأت شبحًا؟

أدرت رأسي سريعًا لأعرف ما يجري فتعتريني أنا أيضا ذات الملامح المرسومة على وجهها قبل قليل..

نعم، فعلها الفتى!

غافلني ذو العامين إلا أشهرًا وحصل على مسدسي الذي رميته كعادتي عند دخولي، حصل عليه ثم راح يأكل فوهته وأصابعه الصّغيرة تضغط

على الزّناد بكل براءة، من حسن الحظّ أنّي قفزت من مكاني وسحبت المسدّس بسرعةٍ حتّى شعرت أنّي سبقت الضّوء بتلك القفزة!

بينما سقطت من كانت تتظاهر الشّجاعة مغشيًا عليها..

***

صرخةٌ عالية! هل قامت الحرب العالمية الثالثة؟

الحمد لله أن لا، كانت فقط المزعجة جود تستيقظ بكلّ فزعٍ وتأخذ الفتى من حضني وتضمّه بقوّةٍ حتّى كادت تخنقه، ثم انهالت عليّ بالسّبّ وكأنّني أنا السّجين وهي السّجانة!، فقد صرخت في وجهي: "كدت تقتله يا معتوه"

-"ها؟! ولكن تلك مهمّتي أنسيتي؟ "

-"أيّ عاقلٍ يرمي بمسدّسٍ في غرفةٍ بها طفل! "

-"لم يكن معبّئًا أصلًا! "

صمتَت جودٌ لبرهةٍ ثمّ انفجرت ضاحكةً غير مكترثةٍ لمشاعري وكرامتي الّتي جفّفت بها الأرض! لتقول: "يا لك من بائس! متأكّدٌ أنّك قاتل؟ كنت تأتي فقط لأجلنا أم ماذا؟ "

-رددت بغيظٍ على تلك المتنمّرة: اخرسِي! "

بعدها، أوقفت ضحكها ثمّ رسمتْ ملامح الجدّ فجأةً وأردفت:

-"اشرح لي ما يجري هنا، قلتَ إنّك لست من قتل أخي وزوجته؟ "

وجدت نفسي مستجوَبًا والحقيقة أنّها كانت أوّلَ شخصٍ أحكي له عن طفولتي الغريبة، عن الأب المثالي الّذي حظيت به وعن مسيرتي كمجرمٍ وكيف انتهى بنا الأمر نقتل من يحاول فضح اغتيالاتنا، رغم أنّه لم يكن من نقتُلهم بريئين ولكن الانتقام دوامةٌ لا تنتهي فحالما تعلق بها تعجز عن التّنفس، كلّ حبيبٍ له حبيب، كلّ حبيبٍ يثْأر لحبيبه لينتهي الأمر بك قاتلاً محترفًا بمجرّد أن تتخطّى حاجز التّجربة الأولى..

رفعت رأسي بعد أن أنهيت سرد حياتي حرفيًا، لأجد الدّموع تتجمّع في عينيها الرماديتين لتزيدهما جمالاً ثمّ صرخت: "لقد سامحتك!"

-رددت باستغراب شديد: "سامحتني؟ من قال إنّي أعتذر منك! "

-"اخرس! يمكنك قتلي لا أمانع"

-قلت بانفعال: "لن أفعل! إنّكِ أوّل إنسانٍ أتصرّف معه بعفويةٍ دون التزامٍ وأيضًا مؤخّرا صار المجيء عندك أجمل جزءٍ في اليوم"

لم أكذب، الحقيقة أنّني بالفعل تعلّقت بتلك الغبيّة الّتي تصرخ كلّ ثوانٍ فجأة، المشكلة هي أنّ أمّي لا تعرف بأمركِ يا جود، فهي تظنّني قتلتك، حسنا حتّى ذاك اليوم، كيف عرفت أمّي بوجود جود والطفل؟

لا فكرة لديّ، لكنّها أمرتني بأن أقتلك أو تتولّى ذلك بنفسها، لكنّني رفضت طبعًا! لماذا؟

حسنًا ربّما أحببتها فعلاً، لنستأنف الكلام وقصصنا الشّخصية ذات يومٍ بعد أن فُضح أمرها لأمّي ولكن هذه المرّة هو دورها.

-عبد الرحمن: "إذن ليس ابنكِ! "

-"كلاّ إنّه ابن أخي"

-"هذا يسعدني، نوعًا ما"

-"ماذا تقصد؟ "

-ارتجلت قائلاً: "إنّه فقط، تعلمين أمّي اكتشفت أمرك"

-"ستقتلني؟ إذاً أسرع لو سمحت"

-صرخت بلا وعي منّي: "لن أقتلكِ! مستحيل أحبّك! حقًّا! إنّك الوحيدة التي أتصرّف معها على سجيّتي!"

نظرت إليّ بصدمة لفترةٍ وجيزة ثمّ ضيّقت عينيها لأقول:

-"هل أنتِ تبكين؟ "

-"تعلم لست سيّئـا كما تظنّ، إنّ لك ضميرًا رغم كلّ شيءٍ لكن لا يمكنني السّماح لك بأن تحبّني، فقط عجّل بقتلي"

-قلت بصدمة: "ها؟ لماذا تريدين الموت لتلك الدّرجة؟، هل سبّبت لك الكآبة؟ "

ابتسمت جود من وراء دموعها وأمسكت يديّ برفق ثمّ أردفت بصوتٍ حزينٍ تخنقه العبرات بعينيها: "تعلم لستُ بتلك الشّجاعة! حاولت الموت عدّة مرّاتٍ من قبل لكنّي كنت خائفةً من الانتحار، إنّني سأموت على كلٍّ كما كلّ البشر لكنّني أريد أن أتحرّر وحسب إنه دوري لسرد حياتي..

منذ صغري عجزت عن اللّعب مع باقي أقراني لأنّي كنت طريحة الفراش على الدوام، فقط يأتي الناس ليذكّروونني بحقيقة مرضي، لكنّي بهذه الفترة نسيت تمامًا أنّني قد أموت بين اليوم والغد، نسيت أنّ لي كبدًا ضعيفةً تعجز عن تصفية دمي دون كيماوي، تعرف؟

كنت سعيدةً عندما رأيتك توجّه المسدّس نحوي لكنّي خشيت على الطّفل الصغير فهو لا يعاني مثلي..

اسمع، أما زلت ستقتلني؟"

عجزت عن الكلام لفترةٍ لذا احتضنتها وحسب متحاشيًا التّعليق فأنا مثلها تماما جبان اتّجاه الحقائق، لكنّ الحقيقة تظهر دومًا مهما طال الزّمن فمع الوقت لاحظت أنّها كانت تعاني حقًا، مع كلّ أنينٍ تصدره يتمزّق قلبي وأتساءل لمَ تعيش؟

ثم في آخر أيّامها عبأّت مسدّسي بالّرصاص ووجّهته نحو رأسها في مساءٍ كئيب، لكنّها فرحت وأظهرت نظرة رضاً بابتسامةٍ آسرة تلتها بقول:
"أشكرك على إنهاء معاناتي، هل لي بطلبٍ أخير؟ "

-"طلبي ما تريدينه"

-"لا تدع هيثم يعرف أنّي تخلّيت عنه، خذه إلى ميتمٍ ما فقط لا تحجزه"

-"اطمئنّي، آسفٌ على حجزكِ كلّ تلك المدة، كان عليّ أن أكون شجاعًا".

«كلانا جبانٌ يا عزيزي، قلت إنك تحبّني بالواقع أحبّك أيضًا، أظنّني مصابةً بمتلازمة حبّ من يخطفني، إنّه حبٌّ جبان!

وداعًا، شكرا لك.. أبلغ هيثم تحياتي وخالص حبّي لكليكما..».

الفصل العشرون: وعدٌ طفوليٌّ

كلّ دقيقة تمرّ عليّ تزداد عيناي ظلمةً وقلبي قسوةً، لا زلت أخشى أن أفقد سبب سعادتي الوحيد كلّما ابتعد عن ناظري حتّى لم أعد أعرف لمَ أعيش لأجلك أم لأجل نفسي؟.

'حسنًا، هذا منظرٌ غريب..

رئيس الشّركة المنافسة لنا يقف أمام باب مكتب المدير ينتظره أيضا!'

تلك كانت تساؤلات بشير، المدير التّنفيذي للشّركة الّتي كانت مدرجةً تحت اسم ليوهارد، حتّى نطق الكيان الشّاحب الّذي أمامه إذ يبدو أنّه حيٌّ ولو أنّ تعابيره خلت من الحياة، فبدون مقدّماتٍ قال: "أين المدير؟ أحتاجه الآن الأمر خطير"

-ردّ بشير بهدوء: "اهدأ يا سيّدي لمَ لا تشرب... "

-قاطعه عبد الرحمن صارخًا: "لا وقت! أرجوك اسمعني! كيف أشرح لك؟.. الختم، ختم الشّركة هنا صحيح؟"

هل وجود الختم من عدمه له هذه الأهميّة؟ ما هو هذا الشّيء أساسًا؟

حسنًا، إذا تمّ سرقة ختم الشّركة وعقود الملكية، فقد يشكل ذلك خطرًا كبيرًا عليها فالختم يعتبر وسيلةً قانونيةً لتوثيق العقود والمستندات، وإذا وقعت في أيادٍ خاطئة، فقد يتم استخدامه بشكل غير قانوني..

عادةً ما يتمّ حفظ ختم الشّركة وأوراق الملكية في مكانٍ آمنٍ داخل مقر الشركة نفسه ويمكن أن يكون هذا المكان خزنةً محميةً بكلمة مرور أو غرفةً مؤمنةً وبالنسبة لشركة إيمانويل فهو بغرفة المدير التي لا يمكن دخولها إلا ببصمة، كما يتمّ اتّخاذ إجراءاتٍ إضافيةً لضمان أمان هذه الوثائق الهامّة، مثل تحديد الوصول إليها لعدد قليل من الموظّفين المخوّلين فقط ،إذ يجب أن يتمّ توثيق وتسجيل أيّ استخدامٍ أو نقلٍ للختم أو أوراق الملكية لتتمكّن الشّركة من تتبّعها والحفاظ على سلامتها..

نظرًا لأهمية هذا الختم المذكور آنفًا فقد أدرك بشير أنّ هذه الزيارة ما هي إلا تمهيدا لصدمة، الختم قد يكون اختفى! فإن لازم ذلك اختفاء العقود فقد وقعوا في مصيبة!

'هل أخذه ليوهارد؟ و لمَ قد يفعل؟

مهلاً، هل سُرق؟

إذًا كيف عرف عبد الرحمن بهذا لو لم يكن له علاقةٌ أو يكون طرفًا مساعدًا؟!'

كلّها أفكارٌ تحوّلت لوساوس في عقل المدير التّنفيذي المفجوع إذ يبدو أنّه أدرك أنّ أحدًا من الدّاخل قد سرّب الختم لمن هم بالخارج، وأيًّا كان هؤلاء فهم بلا شكّ لن يفوّتوا فرصة امتلاك شركةٍ كاملة وهي أمامهم دونما هواجس..

بعيدًا عن مسرح الأحداث الحالية، سار هيثمُ شريدًا غير مدركٍ لوجهته فهو فقط يفكّر أنّ ما كان ذنبه في كلّ ما جرى؟ لمَ على الأولاد أن يدفعوا ثمن

أفعال آبائهم؟ لمَ قد تنهار حياتك فجأة لحقيقةٍ واحدةٍ خرجت للنّور فغمرته بالظّلام؟..

أيًّا كان ما ستؤول إليه الأمور فبقاؤه وحيداً لم يكن طويلاً بل انتهى حالما رأته ردينة، مستغربةً من حاله، فلِمَ يسير وحده في المطر بهذا الشّكل الكئيب؟ وكأنّه بطلٌ خارج من فيلمٍ ملحميٍّ خسر فيه جولةً مهمّةً.

-"هل أنت بخير؟ "

غريبٌ كيف تتكرّر المشاهد في حياتنا وتسير كما سارت من قبل، كما هذه اللّحظة الّتي ذكرتها بلحظةٍ سابقةٍ بعد نظرةٍ باردةٍ رمقها بها يحاول تذكّر من هي أساسًا يرجّح إنّه أكثر المواقف إحراجًا!

لتبدأ هي الحديث متجنّبةً ذاك الحرج: "أنا ردينة وآتي لصفّكم كثيرًا، ألست صديق ليون؟"

-هيثم: "صديق؟ أتساءل إن كنت كذلك"

-ردّت مستغربةً: "تتحدّث مثله! لكن ما الأمر لمَ تمشي وحدك هكذا؟ هل تحتاج أيّة مساعدة كمظلّةٍ مثلاً؟"

-ردّ بلؤمٍ: "لا أريد، دعيني! لا أعرفك على كلّ حال"

تأفّفت ردينة من فظاظته ولكنّها ظلت حائرةً من حاله ما جعلها تتّصل بليون، ربّما لأنّه الوحيد الّذي رأته يكلّمه ولو أنّها كانت مرّاتٍ قليلةً، فهل هما صديقان؟ على كلٍّ فقد عهدت بأمره لليون..

نعم، فهما كذلك ذات يومٍ كان رفيقان يلعبان في الأروقة بانتظار انتهاء اجتماع حضرات أبويهما، كبراءة الأطفال المعهودة حينما تُصادق طفلاً لم تره إلاّ اليوم وقد لا تراه بعد ذلك ليكون صديقك المؤقّت، لكن الأمر كان مختلفًا بالنّسبة لهما فقد التقيا أكثر من مرّةٍ بعد ذلك، وفي كل مرّة يتواعدان أن يلتقيا ثانية، بذاك الوعد الطّفولي.

تساقطت تلك الأفكار على رأسه كما المطر آنذاك،' لمَ لا نعود أطفالاً؟

ليتني لم أعرف قصّة جدّتي الغريبة ولا حقيقة والدي، ليتني بقيت مجرّد طفلٍ يلعب مع رفيقه الوحيد، قبل أن يُجبر على فراقه وأحيانًا كثيرة على غدره وخيانته والعمل جاسوسًا مرغمًا ولكنّي فعلت بل وأكثر من مرّة!'

خاطب نفسه في صراعٍ و كأنّ في داخله شخصان لم يتفقا!

"لمَ لم تعارض؟ "

-"لا أعلم ربّما كنت خائفًا"

-"خائفًا! خائفا من ماذا؟ "

-"من خسارة عائلتي، ليس جدّتي إنّي أكرهها لكن أبي هو كلّ شيءٍ لي"

-"والآن؟ لقد خسرت والدك، اعذرني اكتشفت أنّه كذب عليك لسنين وأنّه أنهى حياة والدتك ومشى في جنازتها بل أكثر! ربّما كنت لتعيش بشكلٍ طبيعيٍ لولا فِعلته، والآن ماذا لديك لتفقُّده؟، من تكون على كلّ حال؟ لست ابنه، ولا حفيدها، من قال لك أن هيثم اسمك؟ من تكون إن كان كلّ ما تعرفه عن نفسك كذبة؟!"

-"لا أعلم، لا أعلم، لا أعلم! لم أعد أعرف ما يجب أن أعرفه حتّى! "

ضجيجٌ عالٍ وصراخٌ مزعجٌ من عدّة أصواتٍ غزا خلايا عقله ما جعله مقيّدًا بصداعٍ شديدٍ حتّى أنّه قد يصاب بانهيارٍ عصبيٍّ فعليًّا، تلك اللّحظة حينما تدرك أنّك لا تعرف شيئـا لا تعرف حتّى من أنت تتساءل من أنا؟..

-"أتريد الموت بالزّكام؟ ميتةٌ ضعيفةٌ بالمناسبة"

رفع رأسه ليعرف مصدر الصّوت وقد كان هو، ومن غيره؟.. صديق الطّفولة

-هيثم: "ماذا تفعل هنا؟ "

-ليون: "ألم نتواعد أن نلتقي ثانيةً أكثر من مرّة؟، لمَ قد أتركك وأنت بهذا الحال"

-"لم أعد.. لا يهمّ دعني وحسب"

-قال بابتسامة: "ألست أنت من ساعدني يوم حصّة الرّياضة؟"

-"أذكِّرك أنّي السّبب أيضا بالكسر الّذي تلى ذلك اليوم!"

-قال بتجهّم: "من يهتمّ؟!، العديد من أفعالك لست أنت من يقرّرها"

-"أنا أقرّر؟ هل يمكنني أساسًا؟.. أنا منساقٌ فقط"

-"لكنّك موجود لديك خيارٌ تميل إليه ورغبةٌ وضمير، إذن كن نفسك فقط، وليذهب الباقون للجحيم! "

-ابتسم هيثم ردًّا عليه بانكسارٍ ثمّ قال بذات الابتسامة: "تعرف حصل الكثير، بالأحرى اكتشفت الكثير"

-"تذكّرت يوم جلسنا على الدّرج نلعب صراحة أم شجاعة، هل تودّ اللعب؟"

رمقه هيثم بنظراتٍ ضيقةٍ وتعابيرَ منكمشةٍ كنايةً عن استغرابه الشّديد، لقد تجاهله تمامًا!

-ليون: "أنا الأوّل، أختار شجاعة! ماذا تريد؟"

-صرخ فيه "إنّك غريب! ماذا تتوقّع أن أطلب منك؟ القفز من الجسر في هذا الجوّ مثلًا؟!"

-"حاضر! "

قد فعلها! ليون قفز فعلاً من الجسر بل وبكلّ حماسٍ ومرحٍ! لمَ لا تقفز من جسرٍ في المطر؟ ربّما لأنك ستصاب بالزّكام عداك عن خطورة الأمر، فكان ذلك ما جعل السّائق محمد يقفز في مكانه مناديًا عليه: "ليون، ما الّذي دهاك يا بنيّ!"

-ليون بعد أن استعاد نفسه: "لا شيء! أقوم بالطّلب"

-محمد مذعورًا: "تحرك ستجن جورية! أسرع وتجفف! إلى السيارة أنت وهو!"

لم يمنح محمدُ هيثمَ وقتًا للتّفكير بل أدخله حالاً حتّى عادا للبيت، وهيثم لا يزال مذهولاً من فِعلة ليون بينما كان يضحك ويبدو أنّه مستمتعٌ حقًا، وطبعًا تَلَا تلك الّضحكات صرخات جورية وتوبيخها لكليهما ولو أنه لا

ذنب لهيثم، بل هو لا يعرفها حتّى! لكنّها أول امرأةٍ بحياته توبّخه قلقًا عليه لتجوّله بالمطر بلا ثياب تقيه البرد، فقال بانزعاجٍ مخاطبًا ليون بعد مغادرة جورية: "تعرف أنك مجنون؟ "

-ليون رافعًا كتفيه وحاجبيه بذات الوقت مبرّرًا: "لكنّنا كنّا نلعب وهو دورك، صراحة أم شجاعة؟"

-"صراحة أخاف أن تطلب منيّ القفزَ من النّافذة!"

-ضحك ليون ليردّ:" لن أفعل!، والآن تعال احكِ لي ما جرى"

-"أنت خبيث! مع أنّي كنت سأخبرك من البداية"

-"لم تكن بحالٍ يسمح لك بالشّرح، والآن إن لم تحكِ لي فاقفز من النّافذة وحبّذا لو تتشقلب أيضًا!"

-ردّ هيثم بعد أن شدّ تعابيره: "تذكّرت أنّي لا أحبّك كثيرًا!"

-ضحك الآخر بسخريةٍ ثم راح يشجّعه على أن يحكي بعبارة: "للتو رويتُ قصّةً أراقتني طويلاً لليوهارد، وشعرت وكأنّ حِملاً ثقيلاً على كتفي قد زال وكأنّ الحياة عادت تدُبّ بجسدي، لذا فلتسردْ لي ما جرى علّك تحسّ بتلك الراحة"

فكّر بكلامه قليلًا ثمّ قرّر اتّخاذ أول خطوةٍ لتجاوز المشكل ألا وهي الاعتراف بوجوده لمن ترتاح له أو لنفسك فروى له الأحداث الأخيرة بداية من الشّجار إلى ما اكتشفه مع بعض الدّموع التي تسلّلت من فترةٍ إلى أخرى ثم ختم كلامه:

-"أنا لا أعلم ماذا سأقول لأبي، ما الّذي عليّ فعله؟، لاأزال أحبّه لكن هذا صادمٌ ويجعلني أشكّ بمن لم أشك به يومًا! تعرف ما أصعب هذا الشّعور؟ فقط أريد أن أعرف لماذا؟"

نهض ليون من مكانه بسرعةٍ فاجأت هيثم ثمّ وقف لفترة كعمودٍ محدّقًا للأمام بشكل أرعبه ليقول هيثم: "ما الّذي أصابك، هل سكنتك روحٌ ما؟"

لم يجبه بل راح يمسك يده ويأخذه إلى الشّرفة في المطر رغم أنّهما جفّفا نفسيهما توًّا تحت تهديد جورية -طبعًا- الّتي لن تغفر لهما إن تبلّلا ثانيةً- وهل يهمّ ذلك؟

حتّى قال ليون مشيرًا بأصبعه نحو أحد الرّجال المارّين: "أترى ذاك الإنسان الّذي يمشي هناك؟ ذاك الّذي يحمل مظلّةً سوداء إنّه والدك الحقيقيّ، خذ حقيقةً أخرى صادمة!"

-ردّ هيثم بتعجّب: "ها؟؟ ما الّذي تهذي به؟ هل ضربت رأسك عند الجسر؟! "

-"لكنّي جادّ! ألم تفرح؟، إنّه والدك اذهب وعانقه وناده أبي!"

-هيثم بغضبٍ: "توقّف عن التّفاهة!، حتّى وإن كنت صادقًا لا يتعلّق الأمر بصِلتي به، بل بطبيعة علاقتي معه"

-"إذن لمَ أنت مستاءٌ من والدك؟ إنّه رغم كلّ شيءٍ الّرجل الّذي استحق كلمة بابا منك، ما الّذي تغيّر ؟"

-"لا.. لا شيء"

-"إذن لمَ كلّ هذا الهمّ؟ فرق بين الصّدمة ومرحلة ما بعد الصّدمة"

لم يعرف هيثم كيف يردّ عليه، حسنًا لن تنادي أيّ أحدٍ بابا فقط لأنّه والدك البيولوجي، إنها كلمةٌ مستحقّةٌ وليست بسهلة المنال ما جعله يعانقه، لمَ؟ من يدري! لكنّه شعورٌ دافئٌ حين تعرف أنّك لن تواجه قساوة هذا العالم كلِّه وحدك..

ليون يدرك ما قاله أكثر من الجميع كونه مدركًا لحقيقة أنّه ليس ابنًا لعائلة إيمانويل، لكنّه مع ذلك أحبّ رجلاً دعاه بابا وامرأةً دعاها ماما وأخًا أكبر من ذلك، لذا هو لم يهتمّ كثيرًا لتلك الحقيقة فالأهمّ هو ما يعيشه حاليًا ويريد من هيثم أن يدرك هذه الحقيقة الّتي غابت عنه بسبب الصّدمة، طبعًا الأمر صعبٌ عندما تتلقّى صدمةً كتلك، تخيّل أن يأتي أحد أفراد عائلتك الآن وأنت تقرأ هذا السّطر تحديدًا ويقول لك: 'أنت لست ابنًا لهذه العائلة!'

نعم فالحقيقة مرعبة، كان العالم كلّه ليكون مرعبًا لو لم نكن نستطيع إخفاءها بالكذب والكتمان.

على كلٍّ هناك أمرٌ أهمّ، فالقصر صار خليّة نحلٍ بعد اكتشافٍ هزّ أركانه، لقد اختفى ختمٌ يساوي شركةً كاملةً وأمانةً ضخمة!.

«ألست غريبًـا؟ إنّك متناقضٌ وكأنّ لك شخصيتان مختلفتان عن بعضهما مائةً وثمانين درجة!

حسنًا كلّنا نمتلك شخصيةً قويةً نظهرها للعالم محاولين إقناع أنفسنا أنّنا أقوياء أمامهم، وأخرى ضعيفةً لا تظهر إلّا لمن تثق بهم فإن غابوا أضحى ذاك الجانب طاغيًا ومحطّما لنا..

إذن من نحن منهما؟ نحن الاثنين»

-"أين ابني؟، انطقي! ما الّذي فعلته من وراء ظهري... لمَ؟ لمَ تدمّرين حياتي؟، أجيبيني يا أمّي!"

-"ابنك الحبيب الّذي فضّلته عمّن حملتك تسعة أشهرٍ برفقة والديه الآن، هناك بالضبط حيث رفاقي الحقيقيّون، هناك من لم يخنّي بعد أن جعلته يكتسب الخضرة والجمال عكسك أنت! ما رأيك أن تلحق ابنك لتصير سمادًا؟!".

الفصل الحادي والعشرون: تغيير

كلّ كلمةٍ جارحةٍ تتلقّاها تجعلك أكثر برودةً اتّجاه البشر من الّتي قبلها .

هرجٌ عمّ القصر في لحظاتٍ قليلة تلاه صرخةٌ مدويّةٌ من بشير الّذي اقتحم المكان كجنديٍّ متحفّز لقتل مستعمرٍ تسبّب في يتمه ثمّ راح يهزّ ليوهارد الّذي يبدو أنّه لن يرتاح اليوم قائلاً:

-"استيقظ! انهض يا هذا انهض.. أهذا وقت النّوم؟ "

قام ليوهارد مفزوعًا وقبل أن يستوعب عقله من هو وماذا يفعل هنا نطق بشير:

-"الختم ضاع! الختم يا ليوهارد"

-""أيّ ختم؟ ماذا يجري؟! "

-"اسمعني، الختم الذي يوقّع به المالك على العقود اختفى من الخزنة المخصّصة له بالبنك قال الأمين أنّك وقّعت بيدك على وثيقة سحبه ألم تفعل؟ "

-ليوهارد بعد أن طار النّعاس من جفنيه: "بل، بلى فعلت احتجته للتّوقيع على صفقات ذاك الأسبوع المكتظّ، أخرجته مع عقود الملكية لأجل الأسهم"

-"وأين هو؟ هل أرجعته للخزنة؟ "

-"أجل بغرفتي وأنت وناتالي الوحيدان المسموح لهما بدخولها وحمله"

-"أنا لم ألمسه! وهو ضائعٌ والعقود كذلك"

-ليوهارد: "تقصد أنّه مسروق؟ أتتوقّع أن ألوم ناتالي؟"

-ردّ بشيرٌ وقد بدأت علامات الغضب تظهر عليه: "هل تتّهمني أنا إذًا؟ ختمٌ قادرٌ على ختم كلّ أنواع الأوراق الخاصّة بالشّركة ومنها عقود بيع الأسهم وحتّى الملكية الّتي هي ضائعةٌ أساسًا شيءٌ بهذه الأهميّة ضائعٌ بل مسروق وتقول لي أنّك لا تشكّ بها"

-ليوهارد منزعجًا: "ألست أنت بدورك محلّ شكّ؟ "

أحسّ بشير بإهانةٍ شديدةٍ بسبب ما قاله ليوهارد، حيث إنّ بشير يُعدّ من أوائل الأشخاص الّذين عملوا مع السّيّد أوليفر، وأن تخطر ببال الوريث فكرة أنّه هو من سرق ختمه بدلاً من ناتالي الّتي تعمل بالشّركة منذ مدّةٍ قصيرة، جعلته يشعر بغيضٍ شديدٍ وحسرةٍ على سنوات الوفاء الّتي خاضها في سبيل ن8الشّركة وخصوصًا أنّ ليوهارد ظنّ أنّ سبب فعل ذلك هو عدم موافقته على مشروعه الّذي رفضه آنفًا، فقال بلا وعيٍ منه جعل سوء الفهم بينهما شديدًا حيث صرخ: "أتّتهم شخصًا بدأ بهذا العمل مع والدك قبل أن تولد أنت حتّى، بدلاً من اتّهامك للفتاةِ الغريبة فقط لأنّك تحبها؟!، يا لك من طفلٍ صغير!"

-ليوهارد غاضبًا: "يا لَوقاحتك لتخاطب المدير بهذه الكلمات!، إنّك تتجاوز حدّك سيّد بشير ولو أنّك أقدم منّي في الشّركة، وتعرف والدي أكثر منّي أيضًا، كما أعترف أنّك ساعدتني كثيرًا في مشواري كمديرٍ جديدٍ لهذه الشّركة، إلاّ أنّ وقاحتك تجاوزت حدّها يا سيّدي، لذا دعْ ما بيننا يبقى جيّدًا!"

-ردّ بشير بعد أن هدأ قليلاً على ليوهارد: "حسنًا إذا، ستُضيّع كلّ جهود أوليفر المرحوم بسبب فتاةٍ خائنةٍ تجاهلتَ أفعالها لأنّك مغرمٍ بها، أنت تُقدِّم مشاعركَ على عقلك، إذًا أنت لا تصلح لتكون مديرًا واعذرني على وقاحتي وعلى ما قلته، إلاّ أنّي لم ولن أتحمّل إهانتك"

غادر بعدها بشير المكان غاضبًا تاركًا ليوهارد في حيرةٍ من أمره، وبالوقت نفسه نادمًا على ما قاله لكنّه جزم أنّه لن يشكّ بناتالي مهما حدث..

كثيرةٌ هي المواقف الّتي يتجاوز فيها القلب منطق العقل، وهل يُعقل أن تكون ناتالي الّتي ساعدته طول مشواره كمديرٍ وواسته طول هذه المدّة، هي من فعل ذلك؟ وهل لها سببٌ أساسًا ؟.

***

أثناء كلّ هذا، كان ليون وهيثم يشاهدان هذه الأحداث بالتّفصيل إلاّ أنّهما فضّلا الصّمت خصوصًا مع تزايد قلق هيثم على والده. والده الّذي عاد إلى أمّه يجرّ خيباته يلتمس بعض الرّاحة بعد ذنبٍ خالجه على كلّ فعل اقترفته يده ، فدخل المكان بسرعةٍ باحثًا في كلّ مكانٍ كالمجنون عنه، الوحيد الذي جاء لهذا المكان خصّيصًا لرؤيته فقط، فهو علاجه الدّائم الّذي لم يصفه له أيّ طبيب، إلاّ أنّ غريزة الأبوّة الّتي بداخله جعلته يقلق بلا سببٍ أو هذا ما تمنّاه في داخله على الأقلّ..

-صرخ عبد الرحمن محدّثًا أمّه: "أين ابني؟! أين هيثم؟! ماذا فعلت به ؟!"

-ردّت الأخرى بغير اهتمامٍ ودون أن تحدّق بعينيه المنهكتين: "ابنك الحبيب هرب من البيت بعد أن عرف حقيقة والده، واستنتج أنّك قاتل أمّه!

لا تستغرب يا بنيّ أنت من كنت بي عاقًّا وتريد البرّ؟ أتريد ابنك هو لا يريدك! تقبّل الأمر الواقع لن يحميك أحدٌ في هذه الدّنيا ولن يحيط بك ويسامحك من غير أمّك!"

-"أين ابني؟!، انطقي ما الّذي فعلته من وراء ظهري؟! لمَ؟! لمَ تدمّرين حياتي؟!، أجيبِي! أمي! "

-"ابنك الحبيب الّذي فضّلته على من حملتك تسعة أشهر برفقة والديه الآن، هناك بالضّبط حيث رفاقي الحقيقيون، هناك من لم يخنِّي بعد أن جعلته يكتسب الخضرة والجمال عكسك أنت! ما رأيك أن تلحق ابنك؟ لتصير سمادًا!"

لم يستطع جسده المتهالك الصّمود أكثر في وجه هذا الخبر وخصوصًا أنه تلقّاه من أمه، ليسقط مغشيّا عليه ما جعل أمّه تهرع إليه مرعوبةً فرغم كل شيءٍ ورغم غضبها منه، هي ما زالت أمًّا ومازال ابنها أهمّ أملاكها!

***

مرّت الأيام متباطئةً والحال على حاله فلا ختم ولا عقد واضحين بالأفق، الشّيء الوحيد الّذي تغيّر هو ورود معلوماتٍ من صاحب المحلّ الذي أخذ له إياد القرط، حيث أنّ ما ظنّه الولدان كان صحيحًا فالقرط بالفعل ليس مجرّد إكسسوارٍ بل قرص تخزينٍ يخزّن به الوثائق، ولكن هذه الأخيرة لا تفتح إلا بأخرى مطابقةٍ لها والتي لم يدريا عنها شيئًا ولكنّها تدري الكثير..

ممّا لا شك فيه، أن ما دار بين ليون وهيثم جعله يدرك مدى قيمة والده عنده، فنحن لا ننادي أحدًا بأبي أو أمّي فقط لأنّ بيننا رابطةً بالدّم، إنّما تلك الرّوابط هي روابطٌ حميميةٌ تنقش في الفرد منذ الصّغر، وبالوقت نفسه كل

تلك المدّة جعلت قلقه على والده يزداد خصوصًا مع تدهور صحّته بآخر يومين على حدّ استخباراتهما وتصريحات ليوهارد، ليعزم الذّهاب حيث هو ولو كان الأمر يعني مواجهته للحقيقة، تلك الحقيقة التي نهرب منها بالكذب..

وبالفعل، ذهب كلاهما معًا إلى حيث جدّته ووالده، هناك انضغط قلب ليون لسببٍ لم يعرفه هو ذاته ليدخلا البيت معًا متحدّيان بذلك كلّ مخطّطات تلك العجوز الحاقدة. سار الولدان ببهو للبيت متحاشيَيْن الحرس بعد أن أوصى عبد الرحمن أن يفتحوا الباب حالًا إذا عاد ولده، تلك أوامر الأب الّذي لم يقصّر في شيءٍ للبحث عنه، بل وكان ليبحث بنفسه غير أنّ جسده خانه لينتهي به الأمر مستلقيًا على فراشٍ أشبه بفراش الموت، ولم يفكّر عبد الرحمن بتاتًا بأن يتوجّه ابنه لأعدائهم ومن ظنّهم يكرهونه!.

مع كلّ خطوة، انقبض صدر ليون أكثر فأكثر ما جعل هيثم يسأله بقلق: "هل أنت بخير؟"

-ردّ الآخر بابتسامةٍ جافّةٍ باردة: "نعم"

ولو أنّ ليون حقيقةً لم يفهم ما يجري معه، غير أنّه لن يقبل أن يعطّله في سبيل رؤيته لوالده التي قد تكون هذه الرؤية،هي الأخيرة فالموت لا يستأذن أحدًا..

سار الاثنان مغادريْن البهو الخارجي نحو القاعة الدّاخلية للبيت لتستقبلهما الجدّة بلقيس وتسألهما وعلى وجهها نظرةٌ حادّة: "ما الذّي أحضركما إلى هنا؟"

-ردّ هيثم بعصبيّة: "أين أبي؟!"

-"في الأعلى يتحسّر على السّنوات الّتي قضاها يربي فيك لتخونه بهذه الطّريقة، ألست أنت من نعته بالقاتل؟"

-رُسمت على ملامحه الصّدمة لينكر حالاً: "أنا؟ مستحيل!، مستحيلٌ أن أسيء لأبي بأيّ طريقة، ماذا قلت له أيّتها الشّيطانة؟"

لم ينتظر ردّها إنّما صعد بسرعة نحو غرفة والده ليجده مستلقيًا على سريره شاحب البشرة شديد الاصفرار، فيمسك يده بهدوء قائلًا بنظرة حزينةٍ نادمة ولو أنّه ليس له ذنب :"أبي... أنا هنا"

فتح عبد الرحمن عينيه ليرى فلذة كبده يحدّق به ما جعله يبتسم لا إراديًا وكلّمه هيثم: "لن أسمع القصّة إلاّ منك، ومهما كان فأنت ما زلت وستظلّ أبي العزيز".

***

في تلك اللّحظات، كان ليون واقفًا مواجها لبلقيس ليقول:

-"يا سيّدة هذه أوّل مرةٍ يتسنىّ لنا اللّقاء لذا أودّ أن تعلمي أنّكِ أكثر إنسانٍ أتعاطف معه، أولست من تعرضّت للخيانة من طرف الجميع؟، لكن أرجوك لا تحرمي أبًا من ابنه ولا ابنًا من أبيه أولستِ أمًّا؟ ولا حبيبًا من حبيبه، أقصد ناتالي"

-ردّت عليه بلقيس بنوعٍ من الشّدّة: "تلك الغبيّة خانتني أيضًا، انتشلتها من نصف معاناتها وحينما طلبتُ منها أن تردّ معروفي لم تكتمل فرحتي!"

-ليون: "هي من أخذت الختم، إنّها لن تسلّمه إيّاك صحيح؟"

-"بلى، لكن لا خيار لديها، إمّا أن تخون ليوهارد حينها ستكسر قلبه، أو أن تخسره إلى الأبد وتخسر بذلك حبّها له بزواجها من غيره، لا أدري أيّهما اختارت بعد"

-ليون: "هل تظنّينها ستتّخذ القرار الّذي تريدينه؟"

-أجابت بثقة: "نعم يا عزيزي، الأنثى عندما تعشق تحبّ احتواء من تحبّ، اسألني أنا"

-ليون: "ليس الكلّ مثلكِ، لا يمكننا أن نحصل على كلّ ما نريد، مهما حاولنا في النّهاية سنرضى بما لدينا ولو أنّنا سنفقده في النّهاية، لكن لا بأس! فتلك سنّة الحياة فقط علينا أن نحاول وسنكتسب أكثر ورغم أنّ هذا يعني أنّنا سنفقد أكثر كلّما اكتسبنا، لكنّنا ما دمنا قادرين على المحاولة فلن تتوقّف أبدًا "

-بلقيس: "هذا الكلام لا يصدر من طفل"

-ضحك بهدوءٍ قائلاً: "تلك كلمات أوليفر، الكلمات التي قرأها في كتابٍ للقائكم الأوّل، الكلمات التي لم تغيّر حياته فقط بل حياتي أيضًا"

لوهلة سكتت بلقيس تسترجع كلّ ذكرياتها رفقة أوليفر، ذاك الّذي اعتاد أن يكلّمها بحماسٍ عن كلّ ما أخذه من كتاب بينما تتجاهل هي كلامه ظنًّا منها أنّه يضيّع وقته الثّمين معها، ولكن الحقيقة أنّ تلك الأوقات كانت ما شفعت له بعد موته، تذكّرت اللّحظات الّتي جعلتها تملّ آنذاك على غير المتوقّع كانت هي أجمل ذكرياتها..

غادر ليون بعدها تاركًا إيّاها تفكّر في العديد من الأمور، خصوصًا في اختيار ناتالي، فهي الآن تأمل أن لا تختار تضييع من تحبّ مثلما اختارت هي.

***

التّاريخ يعيد نفسه تمامًا كما في أوّل لقاءٍ جمع البنت ذات الشّعر التّوتي وعذراء الرّبيع، اللّقاء الّذي نظرت فيه بلقيس لنفسها القديمة تكاد تهوي.

«تتسارع اللّحظات فجأةً فنعجز عن فعل أيّ شيء، حينها كلّ ما حولنا يظلم سوى فؤادنا يظلّ ينبض ويعطينا أملاً جديدًا في الحياة..

الفرق كبيرٌ بين أول ما كتبت وآخره، أظنّني بِتُّ قريبًا من أن أدرك من أنا».

الفصل الثاني والعشرون: عندما يعيد التّاريخ نفسه

التّاريخ حلقةٌ مستمرّةٌ لا تغيّرها سوى ظروفٌ حتميّة وقلوب قويّة، عندما يُدمج الماضي بالحاضر، وعندما يتكرّر التّاريخ يجد النّاس أنفسهم في دائرة مغلقة على حافّة الهاوية كما كانت ناتالي في تلك الفترة قبل مغادرة ليوهارد لإشبيلية نحو منزل عائلته..

وقفت ناتالي أو المعروفة بسالي على حافّة سطح تلك العمارة، يداعب الرّيح شعرها في حين أنّ نظراتها الخاوية فضحت عمّا في داخلها من ظلام، لحظاتٌ قبل أن يهوي جسدها إلى الأسفل وتنتهي بذلك أيّامها، هذا ما كان ليحدث لو لم يسحبها كيانٌ غليظٌ أسودٌ ويعيدها إلى الأرض سالمةً عدا ذلك الجرح الّذي مسّ طرف عينها، بعدها بلحظاتٍ استفاقت ناتالي لتُدرك أنّها ليست بميتة، يبدو أنّ محاولتها لإنهاء حياتها باءت بالفشل ليُكتَب لها عُمرٌ جديد، أمّا من سحبها قبل قليلٍ فكان أحد الحرّاس الثّلاثة الّذين لا يفارقون السّيّدة بلقيس، بعدها انحنت بلقيس على ركبتيها تعانق ناتالي لتقول بفزعٍ شديدٍ:

-"أنتِ بخير! أنتِ بخير!. كدتِ تموتين! ما بالك يا أنتِ؟ ما في قلبك؟"

انهارت الشّابّة بالبكاء لا إراديًّا حينما أدركت موقفها لتحتضنها بلقيس معطيةً إيّاها بعضا من الحنان الغريزي لدى كل أمٍّ، الحنان الذي ذكّرها بأمها المتوفاة غدرًا..

كان ذلك بعد سنواتٍ من قصّة سالي المعروفة، فلا أحد فكّر بما جرى لسالي بعد النّهاية السعيدة ولو أنّها ليست بنهايةٍ فلا نهاية إلاّ بعد الموت..

كانت ناتالي حينها بالجامعة تدرُس تخصُّص إدارة الأعمال رفقة ليوهارد تُؤنسه ويؤنسها وتسانده ويساندها، والحقيقة أنّها كانت غالبًا المعطاءة سواءً عاطفيًّا باعتبارها أنثى أو معنويًّا كما تفرضه روحها المرحة، لتُتابع الأيّام كاشفة عن أولى صدمةٍ بحياة ليوهارد فقد وافت المنيّة والدته في حادثٍ عرف تفاصيله فيما بعد تخرجّهما مباشرة، وترك آثاره على أخيه الأصغر فما زاده حزنًا سوى أنّه كان قد مر على التقاء أعينه بأعين والدته سنتين والآن لن يلتقيا أبدًا، ورغم مواساة ناتالي الشّديدة له، ولكنها بدورها كانت بحاجةٍ لمن يقدّم لها تلك المواساة، فها هو مصنعها الذي اجتهدت بإدارته يحترق في حادثٍ مشبوهٍ بعد أشهرٍ من مغادرة ليوهارد لأراضي اسبانيا، ليضرب التّاريخ ضربته وتعاد قصّة والدها في حين احتلّت هي مكانه..

مع أنّها كانت شبه متأكّدةٍ أنّ صديق والدها المزعوم كان السّبب، إلاّ أنّها لا تملك دليلاً واحدًا يثبت شكوكها، فذلك الخبيث اختلس المال من الأب وابنته بالتّتالي وتسبّب في الحريق الذي حطّم حلم الشّابة الحسناء ،ثمّ تقدّم إلى بيتها بكلّ نذالةٍ يعرض عليها الزّواج مقابل إخراجها من دوّامة الدّيون التي وجدت نفسها بها، وبنفس السّيناريو بالضّبط، فلا بدّ من تعويض من فقدوا أموالاً جرّاء هذا الحريق، لتكون ناتالي بين خيارين كلٌّ منهما أسوء من الثّاني، أتدوس على قلبها وتقبل الزّواج برجلٍ نذلٍ بعمر والدها وهي موقنةٌ أنّه سبب ما حدث معها؟ أم تفقد والدتها الّتي لن تعيش دون رعايتها الصّحية وتبقى هي بين الدّيون حتّى يكون لها ذات مصير والدها كما تُلزم نظرية دوامّة التّاريخ؟

وعلى الرّغم من حبّها الصّادق لليوهارد، إلاّ أنّها قرّرت الموافقة على هذا الزّواج فجأة، في لحظةٍ رفعت السّمّاعة مخبرةً ذاك الخبيث أنّها قد وافقت

على طلبه ولكن عليه أن يسرع بإرسال من يُسعف والدتها وينقذها من نوبة القلب الّتي تكاد تخنقها،.. وهل ترحم الدّنيا؟

ناتالي كانت قد وقّعت على عقد الزّواج في ذات اللّحظة الّتي توفّيت فيها أمّها، لتترك العروس الحزينة في حالةٍ يُرثى لها، لا ديون سُدّدت بعد، ولا أمًّا تضمّها وتحنّ عليها بعد الآن ولا حبًّا قد نجح وشفى روحها، فقط جرح القلب وردودٌ بالروح وأحزانٌ تنهش جسدها الذي كان على وشك السقوط من ذاك الارتفاع القاتل..

تلك قصّةٌ مألوفةٌ لبلقيس، قصّة فتاةٍ خسرت حبّها وتكاد أن تتزوّج غصْبًا من رجلٍ تكرهه حتّى الصّميم، لتقول بلقيس وبعينيها عبراتٌ على غابر الأزمان:

-"إيّاك أن ترضخي له عزيزتي، أُطلبي الطّلاق قبل ليلة الدّخول والباقي عليّ، لستِ أوّل شابةٍّ أجدها قد سُلبَ منها كلّ شيءٍ وتُركت مُدَمّرةً كما تُركتُ أنا.. "

-ردّت بانهزام: "ماذا عن الدّيون؟ كيف لي أن أسدّدها دون هذا الزّواج؟"

-بلقيس: "انسي كلّ ذلك، لقد قلتِ إنّك أدرتي المصنع المُدمّرَ بنفسك وبنيته من الصّفر، وهذا إن دلّ فهو يدلّ على قدرتك المُبهرة بهذا المجال، فما رأيك أن تتوظّفي عندي يا جميلتي؟"

-ناتالي: "حقًا؟!، لكن لمَ تفعلين شيئًا كهذا؟"

-ابتسمت بلقيس لتقول بهدوءٍ: "تلك قصّةٌ قد تعرفينها يومًا ما، المهمّ الآن أنّي لا أريد رؤية دموعكِ"

بادلتها ناتالي الابتسامة لتمسح دموعها بعدها، والحقيقة أنّ هذه بالفعل ليست أوّل مرّةٍ تفعل بلقيس ذلك، فهي من عانت قبلاً فكان عزاؤها الوحيد ابتسامة من كانت بعمرهنّ يومًا وبذات موقفهنّ كما هو حال ناتالي وأخريات كثيراتٍ قابلتهنّ بطرقٍ مختلفة، فكانت كطوق النّجاة لهنّ حتى أنّها ذكّرت ناتالي بأطيب إنسانٍ تعرفه ألا وهو ليوهارد، لكنّ الجروح لا تقبل الالتئام بتلك السّهولة، خصوصًا إذا تهيّج الجرح فنزف حتّى الممات، فكان ذلك يوم سافرا من إسبانيا بلد ناتالي الأمّ نحو بلد بلقيس، هناك لمحت بلقيس ليوهارد صدفةً وهي جالسةٌ بأحد المقاهي الفخمة، فها هي يدها ترتجف غيظًا وكرهًا لابن آمنة، المرأة التي تعدّها قد سرقت أعزّ أملاكها، حتّى كادت تدلق القهوة السّاخنة على فستانها من فرط ارتجاف يدها! في تلك اللّحظات تقدّمت ناتالي نحوها ولكنّها لم تصل إلى بلقيس، حيث أنّها استدارت نحو ليوهارد الّذي ناداها حالما لمحها، ليتعانق الاثنان بودٍّ وشوقٍ شديدين ويبتدئ ليوهارد الكلام: "لا أصدّق! ما الّذي تفعلينه هنا؟"

-"ولا أنا أصدّق، لم أظنّ أنّي سألتقيك، حسنًا... توظّفتُ عند سيّدة أعمال هنا ويا محاسن الصّدف!"

-ردّ والبسمة تكاد تشقّ وجهه: "لاقتنا الأقدار عزيزتي، لم أعرف عنك خبرًا منذ التّخرّج"

-ناتالي بحزن: "كانت فترةً عصيبةً حقًّا، لقد توفيت والدتي خلالها للأسف"

-رد ليوهارد متعاطفًا: "عظّم الله أجرك، هذه سُنّة الحياة فحتّى والدي توفّي بحادثٍ قبل أيّام"

-ناتالي متفاجئة: "حقًّا؟ وبعد أشهر قليلةٍ من وفاة والدتك، عظّم الله أجرك"

-صرخ ليوهارد مستغربًا: "أسْلمتِ؟! وأخيرًا بعد كلّ ما بذلته من جهد، أخيرًا شيءٌ مفرحٌ!"

-ردّت ناتالي ضاحكة: "نعم، لم يقاوم قلبي نداء الآذان حالما وصلت إلى هنا، ربّما أتحجّب.. خصوصًا إن تزوّجت"

قالت آخر كلماتها باستحياءٍ في حين سعد ليوهارد كما لم يسعد من قبل، وأخيرًا قد انتقل إسلامه إلى قلبها كما انتقل إلى والده قبلاً، والآن حتّى إن نوى الزّواج بها فلا مانع بذلك فهما على نفس الدّين الآن، ولهذا لم يشأ أن يفترقا ثانيةً وهو من رأى فيها عروسًا مستقبليةً وأمًّا لأطفاله، ليقول بعد لحظات صمتٍ مستحٍ: "هل يمكنني طلب معروف منكِ؟"

-ناتالي: "بالطّبع! فضلك عليّ كبير"

-"شكرًا، صراحةً بعد وفاة والدي صرت مضطرًّا لتولّي الشّركة والمصانع وأنت سبق وأدرتي شركةً بنفسك، فهل يمكنك تكويني وإرشادي في هذه الوظيفة لمدّة قصيرة؟"

-ناتالي: "بالطّبع، لكن أنا حاليًّا أعمل لدى السيدة..."

لم تكمل جملتها الأخيرة، بحيث قاطعتها بلقيس قائلةً بمرحٍ محاولةً أن تدري أفكارها الشّيطانية المحاكة في ذلك الدّماغ: "لقد برُد كوب قهوتك يا ابنتي، أهو صديق طفولة؟"

-ناتالي باستحياء: "نعم أيّتها المديرة، ليوهارد أعرّفك على مديرتي إنّها إنسانةٌ رائعة! أنا جدّ ممتنّةٍ لها"

-ليوهارد: "تشرّفنا سيّدتي"

-بلقيس: "الشّرف لي عزيزي، ألست إيمانويل؟"

-ليوهارد متفاجئًا: "بلى! أتعرفينني يا سيّدة؟"

-"بحكم عملي فقد سمعت اسمك، تعازيّ في وفاة والدك"

-"شكرًا لك سيّدتي، أيمكنني أن أطلب منك أمرًا؟"

-بلقيس مدّعيةً التّفاجؤ: "نعم، ماذا تريد؟"

-"أعيريني ناتالي لبعض الوقت"

تفِاجأت ناتالي من عبارته عكس بلقيس، فقد سهّل عليها الكثير لتوافق بضحكةٍ مصطنعةٍ ثمّ تغادر مع ناتالي تاركةً ليوهارد مرتاح البال لا يدري ما تخطّط له طليقة والده، فحالما وصلت بلقيس وناتالي للشّركة الخاصّة بها، انقلبت ملامح بلقيس إلى القسوة والجمود، ثم قالت بنبرةٍ صارمة: "حان الوقت لتسمعي قصّةً قديمة، قصّة أحّب وسمها ب 'عذراء الرّبيع' احفريها في ذهنك جيّدًا يا عزيزتي"

ها هي تلك القصة المألوفة تتكرّر على مسامع ناتالي الّتي أبدت مزيجًا من الاستغراب والشّفقة لتدلف بلقيس: "حاليًا، أنا بحاجة إليك يا عزيزتي وذلك طبعًا إذا وددت ردّ جميلي"

-ناتالي: "طبعا، جميلك لا أستطيع إنكاره"

-بلقيس: "انصتي، أريدك أن تعملي مع ابن أوليفر بشكلٍ طبيعيٍ إلى أن يقترب موعد عودتك للعمل معي، سيستغرق ذلك شهرين كأقصى حدّ، وحينها دبّري طريقةً لسحب الختم والعقود من الشّركة واحضريها"

-فتحت ناتالي فاهها كنايةً عن صدمتها ممّا سمعته قبل ثوانٍ لتقول مجادلة:

-"كيف؟! تريدينني أن أسرق ملكية الشركة؟!"

-بلقيس: "نعم، هل ستفعلين؟"

-ردّت مخفضةً رأسها بنبرةٍ حزينة: "لا يمكنني إنكار فضلك عليّ، ولكن لليوهارد فضلٌ كبيرٌ عليّ أيضًا وقلبي يحمل له مشاعر مقدسّة، لذلك أنا لا أستطيع، خالص اعتذاراتي"

لم تتقبّل بلقيس تلك الكلمات لتصاب بنوبة غضبٍ شديدةٍ حطّمت بها كلّ ما يمكن تحطيمه بتلك الغرفة، حتّى تدخّل الحرّاس ولكنّها طمأنتهم أنّها بخيرٍ ثمّ اقتربت من ناتالي بنظراتٍ حادّةٍ أدخلت الرّعب على قلبها، وقالت بنبرة تهديدٍ صريحة:

-"هل تعلمين عزيزتي؟ قبل وفاة طليقي استطعت الوصول لطبيبه الخاصّ، ومع بعض التّحويلات المالية وعند إصابة ابنه ووفاة زوجته بحادثٍ خطيرٍ كمفاجأةٍ منّي، كان من السّهل العبث بدواء حبيبي الغالي، أتظنّين أنّني سأسمح لك بالإفلات بتلك السّهولة، ما كان عليك إلاّ إسداء خدمةٍ صغيرةٍ أو.. مثلاً، أتّهمك بسرقة أموالي! فمن أين لك كلّ ذلك المال الّذي دفعته لديونك؟ كيف ستفسّرين ذلك أمام الشّرطة؟ "

-ردّت ناتالي بحدّةٍ وإصرار واضح: "مستحيل! أدخليني السّجن، لا مشكلة! لن أخون من أحبّه قلبي! "

-بلقيس: "أحبّه قلبك؟ إذن ما رأيك بالزّواج من غيره؟"

-ناتالي باستغراب: "ما الّذي تقصدينه؟"

-قالت العجوز بخبث: "أنا من أحضرتك إلى هنا، إن سحبت وثائقك فستعدّين مهاجرةً غير شرعية، يعني ستقعين في مشاكل أكبر، أو يمكنني تزوجيك من ابني بالفاتحة وتزوير كلّ شيءٍ من إلى.. فهمت ما أقصد؟ أتساءل كيف ستهربين منّي، بل كيف ستكون ردّة فعل ليوهارد؟"

-صرخت في وجهها: "أنت مجنونة! "

-"حسنًا، إمّا هذا له أو ذات مصير والده بحادثٍ غامضٍ طبعًا، حتى إن فضحتني فسأفعل كلّ ما سبق، ولك الخيار وأنت فكّري إن لم أفضح قبلاً، فكيف سأفضح الآن؟ "

ابتسمت بلقيس قبل أن تغادر و تأمر الحرس أن يحرصوا على أن لا تغادر الغرفة، في حين وقعت ناتالي بخيارٍ كلٌّ منهما أسوء من الثّاني!

لكن، ليوهارد قد يكرهها ويحبّ غيرها ويتعافى، لكنّه سيخسر تمامًا كما حدث مع والدها ربّما يكون القلب سيّد المواقف، ولكن عند الأزمات على العقل تولّي السيادة، وبعد أيّامٍ ثلاثٍ من الحجز والتّجويع قصد الضّغط النفسي عادت لتعرف رأي ناتالي الّتي ردت بعبراتٍ خانقة: "موافقة، لن أسمح أن يتحطّم ليوهارد بتلك الطّريقة، أفضّل أن يكرهني على أن يتحطّم .. لأنّي أحبّه".

«كل مكان في هذا العالم يحمل قصّة مختلفة، يحمل أرواحًا كانت فيه أرواحٌ عاشت وعانت ورضيت بالحياة، أرواحٌ انتهى ملاذها إلى الأرض تمامًا كأساسات أيّ بناءٍ عليها، أهذه صدفةٌ أم حكمةٌ من حكم الله في الحياة؟، أنا الآن مقبلٌ نحو أحد هاته الحيوات متشبّثٌ بها فقط ولا أحتاج سببًا، من أنا؟.. أنا النّاجي من عمق العذاب المتطلّع للحياة بحلوها ومرّها، ما أجملها من إجابة!».

الفصل الثالث والعشرون: ليتنا لم نلتقِ

أنت مكتئب، لأنّك تعلم أنّك لست الشّخص الّذي أردت أن تكونه.

«مارلين مانسن»

أرجوك أن لا تذكّرني بمحبوبة قلبي، فإن فؤادي ينزف الدم لها آنفًا.

***

مهما طال الزّمن ستظهر الحقيقة، فها هو هيثم بمجلس جمعه والأخوين ليروي لهما قصّة جدّته مع ناتالي وكيف هدّدتها نقلًا عن والده، ولكن لا هو ولا أحد من حولها يعرف ما كان قرارها النّهائي.

طوال روايته للقصّة لم ينْبَس ليوهارد ببنت شفة، بل اكتفى بالتّحديق بصمتٍ وعيناه تكادان أن تغادرا محجرهما، حتّى انتهى هيثم وغادر بعدها بصمت، حينها وضع ليوهارد يده على جبينه محاولاً تدارك نفسه ليسأله ليون بقلقٍ شديد: "أأنت بخير؟ "

-"كما قلتَ أنت، ماذا تظنّ؟ أحقًا هي فعلت ذلك؟!، بعد كل ما فعلته لنيل حبّها أجازى بهذه الطريقة؟! جزاء سنِمّار!"

-ردّ ليون واضعًا يده على كتفه: "ممّا قال هيثم، هي اضطَرّت أن تفعل ذلك عندما خُيّرت، الآن إمّا أن تدمرك أو تكون لغيرك، الأمر يعتمد على حبّها لك من عدمه، وفي هذا لا يختلف اثنان!"

-ليوهارد بأسى: "تظنّ؟"

-"بالطّبع، أنا واثقٌ أنّك ستتلقّى اتصالًا منها أو أيّ شيءٍ مشابهٍ تخبرك خلاله بقرارها، سيعود الختم وتعود العقود دليلاً على حبّها الصّادق لك، حتّى لو كان ذلك.. يعني الوداع"

-ردّ بعد تنهيدةٍ طويلة: "أتمنّى.. لكنّي سأخسرها على هذا الحال"

-ابتسم: "ستكسبها مرّةً أخرى مهما طال الزّمن"

-"أنا لا أقصد ذلك، بل أنا.. أحببتها لصدقها ووفائها وأخلاقها، حتّى أنّي خطّطت أن تكون عروسًا مستقبليةً لي، والآن حتّى إن عادت لأجلي لا أدري إن كان قلبي قادرًا على تجاهل فعلتها، لو أخبرتني لحللنا الموضوع معًا"

-"صدّقني هي لم يكن لها خيار، لن ترضى أن تعرّضك لخطر تلك المجنونة"

-ردّ مخنوقًا: "لو أنّها فقط... ليتنا لم نلتقِ، ليتني لم أعلم بفعلتها، كيف لقلبي أن يشفى من هذا الغدر؟، فكرة أنّها قد ابتسمت كلّ تلك الفترة ابتسامةً صفراءً وخطّطت لكلّ ذلك تجعل عقلي يرفض حبّ قلبي لها"

لم يتحمل ليون رؤية أخيه بتلك الحالة والدّموع قد بدأت سلفًا تخنقه ليعانقه بصمتٍ..

ما مرّ به ليوهارد من وفاة والدته للآن أمر عصيٌب عليه، ليقول الأخ الأصغر بعد فكّ العناق: "لن أعتمد طريقتك القاسية لتخليصي من الذّنب الذي أثقل كاهلي، لكنّي لن أسمح للاكتئاب أن يقتحم قلبك العطوف"

نهض بعدها بنشاطٍ ليستأنف: "انهض أمامي وتحرّك لنتجوّل بالحديقة علّك ترتاح قليلاً، هيّا سأطلب من جورية أن تعدّ لك تلك الحلوى مع أنّها مخصّصةٌ لي ولكنّك تحتاجها الآن.. هيّا يا عدوّ الأبواب.. هيّا"

راح يسحب ذراعه حتّى جعله ينهض ليقول بابتسامةٍ خلاّبة:

-"أخبرتك أنّي لن أتركك وحدك، قُم يا أخي قُم، وأيّ عبوسٍ أراه سأجعل جورية تجبرك على شرب كلّ أنواع الأعشاب المرصوصة بالرّفّ!"

وأخيرًا ، ظهرت ابتسامة ليوهارد الضّائعة ليستسلم لإلحاح أخيه الأصغر ويخرجا معًا للحديقة الخلاّبة الّتي تفتح النّفس وتصفّيها وخصوصًا أنها من تنسيق والداتهما الحبيبة.

في مثل هكذا مواقف، نحن لا نريد من يقف متفرّجًا أو يواسينا مثرثرًا، صحيحٌ أنّ الكلام له الأثر القويّ على القلب ولكن وقع الفعل عليه أقوى بكثير، ذلك هو ما لم يلقه ليون قبلا ليغرق بتلك الدوامة، واليوم ليوهارد هو من تكاد تبلعه ولكن ليس بوجوده، فها هي ليلةٌ تنتهي بشاكلةٍ لم يذق فيها أيٌّ منهما النّوم، بل قضياها يرويان قصص الماضي تارة، ويلعبان بعض ألعاب الفيديو تارةً أخرى، حتى غفى ليوهارد من التّعب فهو مخلوق لا يقبل السّهر!

أما ليون فبِقدر ما كان مرهقًا، بقدر ما عزم أنّه لن يسامح نفسه إن تركه لمخالب تلك الليلة الموحشة التي يزداد فيها الشّوق والحنين، بل آثر أن يبقى مستيقظًا جاهزًا ليصرف باله بقدر الإمكان عن كل فكرةٍ سلبيةٍ قد

تخطر له، وهكذا بحلول الصّباح، كان ليوهارد غائصًا في نومٍ عميقٍ حين خرج ليون من القصر، ورغم محاولة جورية إقناعه بالتغيّب لتعبه، لكنه تحجّج برغبته بمعرفة نتائج الامتحانات التي حضّر لها مع أصدقائه.
والأهمّ معرفة نتائج بحث إياد بخصوص ذلك القرط علّه يكشف جزءًا من هويته.

والآن، هو حيث اتّفقا على اللّقاء بسطح المدرسة يستنشق ليون الهواء العليل الّذي يتسلّل لرئتيه أفضل من ذي قبل في حين يقاوم النّعاس الذي يستعمر عينيه، ليلمح في جزءٍ من الثانية عصفورة..

عصفورة؟ أوليست نفس العصفورة الجريحة الّتي تعافت؟

اقترب من عشّها بهدوءٍ ليقطع الشّكّ باليقين، فعلاً العصفورة المحظوظة قد تعافت من جرحها وعادت لصغارها كما تعافى هو من جرحه بزوال الذّنب الذي أثقل كاهله حينها أدرك أنّه هو أيضًا محظوظ..

طوال الوقت، كانوا هناك بجانبه، يصرخون بأعلى أصواتهم ليستيقظ من سباته العميق، حينها غمره شعورٌ عامرٌ بالامتنان لكلّ هؤلاء البشر في حياته، ثم رسم على محيّاه ضحكة رضًا، وأملٍ وسببٍ جديدٍ للحياة، لتكريم جهود كل هؤلاء عرفانًا و امتنانًا لهم.

قاطع أفكاره صوت هيثم الّذي قال: "منذ عرفتك وأنت شارد!"

-ردّ ليون: "صباح الخير، كيف حالك؟"

-هيثم ملوّحًا بيده: "بخير، بخير، كما أنّ أبي تحسّن لذا أنا بخير، وأنت؟"

-"بخيرٍ الحمد لله، أتعرف..."

-قاطعه صوت إياد الّذي قال دونما مقدّمات: "ياللرّجل النّصّاب! هاك قرطك، قال لا يمكن فتحه إلا بآخر يماثله وفوقها يطلب النّقود بكل وقاحة!"

-ليون محاولاً التّخفيف من حدّة غضبه: "صباح الخير أنت أيضًا"

-هيثم: "تقصد الدّائرة السّوداء الّتي بأذنك؟ كيف نزعتها؟! حتّى تصدّق كنت أظنّها وحمةً كالّتي عندي"

-ليون: "غبيّ، نزعتها بقسوة! لكنّنا اكتشفنا أنّها عبارةٌ عن فلاشه"

-هيثم: "ستصير لك علامةٌ بأذنك مثلي، دائمًا تقلّدني! "

-قال إياد مستغربًا: "مثلك؟"

-ردّ هيثم: "نعم، قال أبي إنّه كان بأذني شيء ما لكنّه ظنّه وحمةً إذ بقي الأثر فقط"

-إياد: "لا تقل لي أنّ عندك واحدًا مثله!"

-هيثم: "ربّما.. اسأل أبي، تعاليا معي بعد المدرسة"

-ليون: "بعد معرفتنا لنتائج امتحاناتنا"

-"لا تذكّرني! "-صرخ إياد بانزعاجٍ لينزلوا جميعًا للفصل على أن يذهبوا لاحقًا لبيت هيثم وبالفعل، وصل الفتية بيته حيث علّق إياد: "كلٌّ منكما بيته أفخم من الثّاني!"

-هيثم: "قل ما شاء الله! ستقتلنا عينك! يا الله من الفقراء"

-ليون: "جدّتك هنا؟"

-هيثم: "بالطّبع لا لقد غادرت لبيتها القديم، ليتها تسلك طريق السّدّ الّتي تأخذ ولا تردّ!"

-ليون: "حرامٌ عليك! أخبرتك مائة مرّةٍ لا تدعو دعوة شرٍّ على أحدٍ مهما كنت غاضبًا عليه، قد تكون أبواب السّماء مفتوحةً في حين غرّةٍ منك"

-هيثم: "فيها حلال، على كلٍّ ها هو والدي"

قالها تزامنًا مع مجيء عبد الرحمن الّذي قال:" مرحبًا أهلاً وسهلاً بالضّيوف ليون و... "

-"إياد.. أدعى إياد"

-"أهلاً وسهلاً بك، أتحتاجون شيئًا يا أولاد؟ "

-همس إياد لليون في تلك الأثناء: "لا يشبه والده البتّة"

-رد الآخر بصوتٍ عالٍ: "وما الغريب؟"

-هيثم: "تهامسا لاحقًا! أبي أيمكنك فتح ذلك الصّندوق الذي يحتوى مقتنيات أمّي؟"

-عبد الرحمن مستغربا: "نعم يمكنك بكلّ وقت، لكن لمَ؟"

-ليون: "نبحث عن شيءٍ كهذا"

قالها وهو يريه القرط في يده ليقول عبد الرحمن: "قرطٌ أسود؟ كالّذي كان بأذن هيثم"

-قال الثّلاثة بصوتٍ واحد: "حقًا؟!"

ردّ الرّجل متفاجئًا من نبرتهم وتزامن ردّهم: "نعم، افحصه بنفسك"

توجّه الجميع بعدها نحو تلك الغرفة المغبّرة، الغرفة الّتي احتوت على مقتنيات جود، بما في ذلك قلادتها الّتي تحمل صورتها والقرط الّذي كان عند الطفل أيضًا، من المرجّح أنها لم تكن موضة ذلك العصر!.

***

داخل مكتبه، جلس بشير يكاد الكرسي يهرب منه من شدّة ما لفّه وأداره وهو يفكّر بعمقٍ حتّى قاطعه صوت دقّ الباب، ليقول ظنًّا منه أنّها عاملة الاستقبال: "أخبرتكِ لا تُدخلي أحدًا"

-ردّ عليه ليوهارد بعد أن فتح الباب ودخل المكتب قائلاً: "اعذرني، فأنا أحتاجك بموضوعٍ خاصّ"

-بشير بعد أخذه لنفسٍ عميق: "لا حول ولا قوة إلاّ بالله، ماذا؟! جئت تكرّر عليّ اتهاماتك؟"

-ردّ ليوهارد بهدوء: "كلاّ، جئت أعتذر"

لم يعلّق بشير ليكمل ليوهارد: "أعتذر منك سيّد بشير، لوقاحتي معك ولاتّهامك بسرقة الشركة، لقد غرّني الشيطان وكنت معميًّا"

-"كانت هي صحيح؟"

آثر ليوهارد الصّمت ليكمل بشير: "شككتُ بها بعد تفقّد كاميرات مكتبك، لكنّي كنت موقنًا أنّك لن تصدّق الفيديو"

-ليوهارد بأسى: "بالفعل، لقد استغلّتني بوضوح.. على كلٍّ، أنا أكرّر اعتذاراتي لك سيّد بشير"

نهض بشير من مقعده ليضع يده على كتفه مواسيًا: "لا تدع غدر الأحبّة ينسيك وفاء الخلاّن، لكنيّ لن أمرّر ذلك دون فائدة تصبّ في صالحي"

-ليوهارد متسائلاً: "ماذا تقصد؟ "

-بشير بخبث: "أقصد المشروع الّذي رفضته سبعة مرات، إذًا ألا تبدو موافقتك عليه فكرةً جميلةً للاعتذار؟"

- "غلبتني هذه المرّة، لتبدأ مشروع الهولوغرام خاصّتك"

-ردّ بشير مستبشرًا: "الحمد لله، أعدك أنّ نظام العرض ثلاثي الأبعاد خاصّتي سيجعلك تتوه بين الحقيقة والخيال!"

-"أنت تريد نظّارة ثلاثية الأبعاد، تعرض الفيديوهات بتقنية الهولوغرام صحّ؟"

-بشير بحماس مبتكر: "لا، بل غرفةً تتيح لك العيش وسط فيلمك المفضّل أو مشهدٍ تدرجه أنت بها سلفًا، يكفي أن تكون بنطاقها!

آم... سأخبرك بالتّفاصيل لاحقًا فهذا مشروعٌ مهمٌّ جدًّا لي فأنا أعمل عليه منذ عشر سنوات لذا أراك، سأبدأ التّنفيذ"

-ليوهارد ضاحكًا من حماسه: "ادعو أن تعود العقود والختم وإلاّ ضاع كل شيء"

-بشير: "لمَ التّشاؤم؟ اسمي بشير واستبشار الخير من عاداتي"

-ليوهارد: "اسمٌ على مسمّى"

غادر بشير المكتب ليبقى ليوهارد محدّقًا بزجاج النّافذة قبل أن يرِده اتّصالٌ يبدو أنّه من هاتف البيت ليردّ متوقّعًا سماع صوت جورية، غير أنّ المتصل كان فتاةً شابةً مألوفةً قالت بهدوء:

-"ليوهارد..."

-"أنتِ ناتالي، أليس كذلك؟"

-"بلى"

-صرخ فيها قائلاً: "مستحيل!، أنتِ لست هي! من تكونين؟، ما الذي غيّرته فيك تلك الشّمطاء.. خيانتك كانت بمثابة طعنةٍ بقلبي"

-أجابت والدّموع تخنقها: "لقد كنت مضطرّةً وخفت عليك منها! من يدري ما قد تفعله بك وهي اعترفت لي بفمها أنّها سببُ وفاة والدك!، لم أرد الزّواج قصرا من ذلك المعتوه قاتل أبي وأمي، أردت الزواج منك أنت لكني صدمت بالحقيقة.. أنّني فعلًا منحوسة، أعلم أنّني أخطأت، لكنّي الآن سأُزفّ لذاك الحقير"

-"مهلاً، ماذا؟!"

-"كما سمعت، كان عليّ الدّوس على قلبي منذ البداية، أصلاً لا أتوقّع منك أن تسامحني بعد أن غدرتك مستغلّةً حبّنا، كلانا يعلم أنّي كنت مجبرةً لكن حتىّ أنا لم أعد أثق بنفسي"

-ردّ بيأس: "أنا لا أريدك لغيري! لكن، أريد ناتالي الّتي أعرفها وليست نسختك هذه"

-أجابته بنشيجٍ مسموع: "أعلم!.. اتّخذت قراري، كان يجب أن لا نلتقي، أكلّمك من هاتف منزلك فلا تقلق كلّ شيءٍ الآن عند جورية، أتمنّى أن تسامحني.. أحبّك".

أقفلت الخطّ بعدها مباشرةً بوجهه تاركةً إيّاه في صراعٍ داخليٍّ ينهش جسده، لتقول مخاطبةً جورية: "أعتذر على كلّ ما سبّبته لكم، أنتِ إنسانة طيّبة جدًّا يا خالتي بقائي معك جعلني أستشعر حنان الأمّ الذي فقدته، أرجوك اعتني بليوهارد"

-ردّت جورية وهي متشبّثةٌ بثيابها في محاولةٍ يائسة منها لمنعها من المغادرة: "أنا متأكّدةٌ أنّكما ستتصالحان، أرجوك انتظري حتّى يأتي إلى هنا ريّما ينزل الله رحمته"

-نتالي: "حتّى لو سامحني الجميع ونسي ليوهارد ما جرى حالما أعتّب الباب، لن أسامح نفسي بعد ما فعلت، ستترك هذه الحادثة ندوبًا أبديةً بقلبينا، كلانا يريد العودة إلى ما قبل كلّ هذا ولكن ليس باليد حيلة، سأخبر بلقيس بكل ما قرّرته مباشرةً من فمي لأذنها وليحدث ما يحدث، أفضل الزّواج من غيره على أن أجعله يمرّ بما مررتُ به"

«وجدت نفسها يتيمة، مخدوعةً ومجبرةً ومقيّدةً بقيدٍ اسمه العجز، لكنّها لم تستطع تخييب أمل بطلها، ففي النّهاية هي تحبّه وتلك بالواقع مجرّد حقيقةٍ أخرى قاسية، مجدّدًا تقول وداعًا، لكن وداع هذه المرّة لا يقارعه وداع..

أشعر بالأسى لكليكما وخصوصًا أخي، نعم أضحيت بكل انسيابيةٍ أناديه بذلك لهذا محالٌ أن أبقى واقفًا أو أسمح لقيد العجز أن يكبّلني فذلك ليس الشّخص الّذي قرّرت أن أكونه، ذلك ليس أناي الجديد».

الفصل الرابع والعشرون: صوت الحقّ

أليس غريبًا كيف أنّ الحقيقة أوضح بكثيرٍ من أن نراها؟!..

ياللعجب!

لقد تطابقت القطعتان وكأنّهما قطعةٌ واحدةٌ فُصلت ببراعة، فحالما وصلها عبد الرحمن بالحاسوب ظهرت العديد من المستندات أوّلها وأبرزها كان بعنوان: 'مذكّرات الصحفي: ميشيل محمد لازورافا'

ليبدأ عبد الرحمن القراءة بعد قراءته العنوان:

«لقد عرفت اسمي الآن، أيًّا كان من وقعت بيده هذه المذكّرات فأناجيك لتسمع قصّتي وتقوم بالواجب..

أنا صحفيٌ عاشقٌ للمجال، انتقلت من بلدي الأصلي إلى هذا البلد المسلم بعد اعتناقي الإسلام وأضفت اسم محمد إلى اسمي اقتداءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفي هذا البلد تزوّجت وأنجبت زوجتي الّتي كانت من هذه البلاد ولدين كالقمر بينهما حوالي السنة والثلاثة أشهر، لكن بعد ولادة أصغرهما والذي سمّيناه 'فيصل'، حدثت فاجعةٌ عصفت بنا، وذلك بعد اغتيال، وأقول اغتيال- وأنا موقنٌ من صحّة مكان الكلمة- لمدير مجلّتنا 'صوت الحق'، الّتي عُرفت بتبنّيها لقضايا حسّاسة وكشف المحتالين المفسدين بالبلد خصوصًا السّياسيين، كلّ شيءٍ بدأ بعد فتحنا لقضية أحد البرلمانيين المعروفين الّذي قُتل لسببٍ مجهول، لقد غصنا بها لدرجة أن عثرنا على عصابةٍ تغتال جماعةً من السّياسيين ورجال الأعمال لكنّنا لم نعرف السّبب بالضّبط لحدّ اللّحظة، وحالما توصّلت زوجتي لاكتشاف

رئيس تلك العصابة والغرض من أعمالهم الإجرامية اغتيل مديرنا الحبيب، المدير الّذي كان أبًا لي حتّى أنّه حضر ولادة طفلَي بشوقٍ وتمنّى أن يناديه هيثم وفيصل بجدّي.. لكنّهما لم يفعلا يومًا..

لأجل روحك النّقية، قرّرنا تشكيل رابطةٍ بذات اسم المجلّة، واستطعنا اكتشاف معلومتين حسّاستين، أوّلهما أنّ العصابة تنتمي لعائلةٍ ثريةٍ تقودها سيّدةٌ تدعى 'بلقيس أحمد جابر'، وأمّا عن السّبب في تلك العمليات فهو لتداري أعمال زوجها المتوفىّ من تهريبٍ وعبثٍ بالسّوق السّوداء وغيرها وتمسك من تورّط معه بتلك الجرائم ولكن بأيّ ثمن؟ ما كان ذنب مديرنا وعائلات المجرمين وأطفالهم الصّغار ليحاسبوا ويُقتلوا؟ أيحقّ لهم تطبيق العدالة فقط لامتلاكهم السّلطة والمال والنّفوذ؟!

ولعلّ هناك مصالح خاصّةً لعائلتها فنحن لم نتوصّل للتّفاصيل، لم نتمكّن من إبلاغ الشرطة لخوفهم الشّديد بعد تعرضّهم للتّهديد تلك السّيدة اشترت مركز الشّرطة، لذا قرّرنا عرض القضية على شخصيةٍ كانت لها علاقةٌ مباشرةٌ بها وسلطةٌ بالبلاد- سأتستّر على اسمه حاليًا فأنا لا أعرف من قد يقرأ هذه المذكّرات- ولهذا سنسافر بعد يومين من وقت كتابة هذه الكلمات، ولسلامة الطّفلين سنترك هيثم مضطرّين عند عمّته، وفيصل عند خاله على أمل أن يبقيا بأمان داعين الله أن يحفظهما من شرّ تلك المرأة ووِزر الشّيطان.

أناجيك يا من تقرأ هذا الكلام أن تُبلّغ عنهم إذا متنا لأنّنا تلقّينا تهديداتٍ عديدةً، وفقدنا أكثر من مديرنا بهذه الحرب الضّروس.

يوم 8 /مارس/2007

انتهى عبد الرحمن من القراءة ليؤْثِر الصّمت في حين التفت إياد لهيثم قائلًا:

-"ما معنى كلّ هذا؟!"

-هيثم متمتمًا: "ذُكر اسم جدّتي.. فهل هذان الصّحفيان فضحاها؟ "

-قال عبد الرحمن بعد كثير من العصر الدّماغي: "رجلٌ وزوجته؟.. صوت الحقّ.. صوت الحقّ، جود كانت أجنبيةً كالرجل في المذكّرات، هل كانت كنيتها لازورافا؟"

قطّب هيثم حاجبيه مستغربًا من كلام والده في حين التفت إياد لليون، ليمسك كتفه قلقًا: "ليون، أأنت بخير؟ ازرقّت شفتاك، أتريد الخروج؟ أجِبني!"

التفت كلٌّ من هيثم وعبد الرحمن له ليلحظا الشّحوب الذي اعترى وجهه فجأة، يرافقه ازرقاقٌ شديدٌ لشفتيه دلالةً على أنّ الفتى يكاد يختنق بسبب رئتيه، في حين أنّ عينيه كانتا تدوران بمحجرهما بتمرّدٍ ليسحبه هيثم ويجلسه بمقعدٍ أسفل النّافذة بعد أن فتحها علّها تدخل بعضا من الهواء له، ليقول ليون بعد أن استعاد توازنه وزال عنه شيءٌ من الدّوار: "الثّامن من مارس.. بعد ثلاثة أيّامٍ يكون عيد ميلادي"

-هيثم متعجبًا: "لهذا شحُبت فجأة؟!"

-ردّ بعد أن حدّق به بنظرات تحمل دلائل الفزع الّذي اعتراه: "والدي اختار يوم لقائه بي بالحادث كيومٍ لعيد ميلادي ليحدّد عمري، وقتها كنت أصغر من سنة! أيضًا أبي قال إنّ السيارة تعرّضت لحادثٍ جُهل سببه ولم يعثروا على الجثث أبدًا ولم يعرفوا بذلك أصحاب السّيارة، أتظنّها صدفة؟!

مع تقارب التّاريخ والعمر، أليس هذا سيناريو محتملًا وتفسيرًا معقولاً لوصول الدّليل الّذي هنا إليّ أنا دونما أحد؟!"

صمت الجميع لبرهةٍ من الزّمن قبل أن ينطق عبد الرحمن الّذي تعتريه ملامح من أدرك للتوّ حقائق عديدة: "جود كانت حزينةً لمقتل أخيها وزوجته وتيتّم ابنهما الّذي يكون أحدهما هيثم في حين جزمت أنّ الأصغر توفّي مع والديه، إن كان القرط دليلا- وضعه الصّحفيان بعد أن توقّعا متوهما فهذا يعني..."

قاطعه هيثم فجأة قائلًا:

-"بقوله سنترك هيثم عند عمّته، والمقصود أنا، وجود هي عمّتي إذن! مهلاً، كانا يريدان وضع الولد الأصغر عند خاله، الولد الّذي يملك الجزء الثّاني من مفتاح القضيّة"

-صرخ إياد وسطهم بنفاذ صبر: "حيّرتموني! اشرحوا كبقيّة النّاس!"

-قال ليون بتعابير جامدة: "الصّحفيان تركا أكبر أبنائها عند عمّته جود بعد ثلاثة أيامٍ من هذا التاريخ المسجّل، ثم التقت جود بالسيّد عبد الرحمن ووصل هيثم لهنا، بعدها قرّرا أخذ الولد الأصغر لخاله ثم لا نعرف التّكملة، لكن القرط عندي وبعد وقتٍ قصيرٍ من الكتابة وقع الحادث ولم يُعرف لجثث الصّحفيين مكان، إذا كنا نتكلّم عن نفس القصة فهذا يعني أنّي أكون الفتى المدعوّ فيصل أي الأخ الأصغر بالقصّة، والصّحفيان قُتلا قبل إيصالي لخالي باليوم نفسه الذي أوصلا به الولد الأكبر أي هيثم لجود"

-عبد الرحمن متعجّبًا: "تقصد أنّكما أخوان؟!"

-ليون: "ألديك تفسيرٌ آخر لوصول القرط إليّ؟"

-عبد الرحمن: "لحظة والدك كيف وجدك في حادثٍ مجهول؟ صدفة؟ "

-ليون بحسرة: "أنا لا أعلم، لم أسأله قبلاً"

-"والدك حاول تعطيل خطط أمّي أكثر من مرّة، ربّما عرف بما حدث للصحفييْن وانتهى به الأمر بأخذك"

-هيثم: "احسموا الكلام بتحليل البصمة الوراثية، الآن نحتاج تفسيرًا من جدّتي!"

-عبد الرحمن: "إنّك محقّ إن كان هناك شاهدٌ على كلّ ما حدث للصّحفييْن فهو أمّي، لم يعد هنالك ما يمكن إخفاؤه"

عمّ السكوت بالغرفة فالواقفون بها محتارون تعصف الأفكار بأذهانهم، ذلك حينما تخرج الحقيقة للضّوء فتحجبه عن كلّ الحاضرين، لعلّها صدفة، لكن كيف بهذه الدّقّة؟، هناك إنَّ بالموضوع وهي لن تُجزَم إلاّ من لسان بلقيس..

في تلك الأثناء، كانت بلقيس جالسة على أحد مقاعد غرفتها الجلدية، شديدة الشّحوب فالتعب ظاهرٌ بوجهها، في يدها أحد الكتب التي قرأها أوليفر آلاف المرّات على مسامعها وهي تتأفّف منه باستمرارٍ ومن ولعه الغريب بالقراءة، لتدرك أنّ ما قاله ليون يوم لقائه بها صحيحٌ فعلاً، هي فكّرت فقط بالمستقبل ونسيت الحاضر، خوفُها الشّديد من فقدانه جعلها تنسى أنه بقربها الآن ومن ثمّة فقدته، غير أنّها الآن لم تعد تملك من

أيامهما سوى ذكرياتٍ مبهمة وكثيرٍ من الشّجارات والمواقف التي شكّت به خلالها، في حين أنّ لحظات حبّهما وسعادتهما انحصرت في تلك الجدالات بخصوص الكتب والزّهور ومع ذلك، لازالت هذه اللّحظات تُعَدّ على الأصابع وفي غالبها لم تُظهر له حبّها كما أرادت، لتَنساب تلك الدّمعة وتقطع الشّكّ باليقين، رغم كل شيء هي أحبّته، لهذا خسرته لتقول بصوتٍ خافتٍ مخاطبةً نفسها:

-"التاريخ يعيد نفسه والخيار لكِ الآن، أرجوك لا تخسري حبّك له.. لكن من سيداوي قلبي إذن؟ بعد كلّ شيء أنا لم أتعافا ويبدو أنّي لن أتعافى إلاّ بالموت المريح".

قاطع فكرها صوت طرقٍ مستحٍ على الباب، لتمسح دمعتها سريعًا وتأذن للطّارق بالدّخول وقد كانت ناتالي، لتنهض بلقيس من مكانها بشوقٍ كبيرٍ رغم ما بجسدها من تعبٍ قائلةً: "أحظرتِ العقود والختم؟ أرني هيّا!"

-ردت ناتالي بوجهٍ جادّ: "كلاّ، لقد أعدت كلّ شيءٍ لليوهارد"

صعقت بلقيس بما سمعته لتقول بعينين محتقنين بالدّم: "كيف؟! أتريدين أن تموتي؟ "

-"الموت أهون عليّ من خسارة نفسي لقد ارتكبت خطئًا بالانصياع لك، ربّما كنتِ طيّبةً معي بالبداية حتّى أنه مازالت لي ثقة أنّك كذلك، فقد عرفتك بما يكفي لكنّ قلبك أُعمِي بسبب حقدٍ وجّهته لمن أحببتِه، وأنا لن أسمح لمثل هكذا مشاعر أن تجتاح ليوهارد".

انتهت من كلامها وبنظراتها إصرارٌ لم تعتده بلقيس منها، لتنهار بلقيس على الأرض تغرق يدها بخصلات شعرها وهي ترتجف قائلة: "لمَ؟ ما كان ذنبي؟!"

انخفضت ناتالي لمستواها ثمّ ساعدتها على النّهوض إلى ذاك المقعد، لتقول لها:

-"أرجوك اسمحي لتلك المرأة العطوفة أن تعود للظّهور، المرأة التي احتضنتني ومنعتني من إيذاء نفسي، المرأة الّتي ذكّرتني بحضن والدتي"

والدتي.. تذكّرت بلقيس فجأةً عبد الرحمن، كيف أنّها دمرت ولدها بسبب هوسها الشّديد بالتملّك الّذي يعدّ مرضًا نفسيًّا يحتاج للتّشخيص لكنّها لم تتقبّل أنّ بها مرضًا نفسيًّا، فأكملت حياتها رغم معرفتها بمرضها ومنعت ولدها من أن يُحبّ وحرمته من كبده، تمامًا كما دمّرت حياة أوليفر وتسبّبت بيتم أولادٍ احتاجوا فقط لحضن أمٍّ دافئ..

ربّما في تلك اللّحظات استفاقت روحها العطوفة الّتي اندثرت مع قسوة هذا العالم، بنفس الوقت كانت سيارة عبد الرحمن التي أقل بها الفتيان نحو ذلك البيت الّذي تتواجد به الحقيقة قد وصلت ، ومجدّدًا انضغط ليون كما بالمرّة الأولى حين دخل عتبة هذا البيت ليسأله إياد:

-"ما الأمر؟"

-ردّ بصوتٍ مرهقٍ: "لا شيء، لم أرتح لهذا البيت من البداية لكن عاهدتك على اكتشاف الحقيقة"

-ردّ إياد بعد أن ساعده على النّهوض :"هيّا يا رفيق، بقيت خطواتٌ قليلة"

نهض ليون وإياد، في حين كان الأب وابنه قد دخلا آنفًا، ليصرخ عبد الرحمن مناديًا والدته: "أمّي.. أمّي"

-ردّت عليه ناتالي من الأعلى: "إنّها هنا، لكن يبدو أنّها متعبة"

ارتاع عبد الرحمن لما سمعه ليسرع للأعلى نحو والدته الجالسة شاردةً على ذلك المقعد، ليمسك يدها وعيناه ترتجفان من قلقه: "أمّي.. أمّي.. أأنتِ بخير؟"

-ردّت بلقيس: "عبد.. عبد الرحمن... أنا.."

-"اهدئي أمّي لا تتعبي نفسك ماذا فعلتِ بصحّتك؟"

وصل الفتيان بتلك اللّحظة للغرفة في حين وقفت ناتالي بالزّاويةٍ ، ورغم أن ليون حاول التّواصل بصريًا معها لكنّها أدارت وجهها لتقول بلقيس بعد رؤيتها المشهد: "إنّني السبب، لا ذنب لتلك المسكينة... أنا أعتذر منكِ يا ناتالي، بدلًا من مساعدتك خنتكِ وجعلتكِ تمرّين بما مررتُ به"

اقتربت ناتالي منها لتقول: "لا داعي للاعتذار، لقد أنقذتِ حياتي أتذكرين؟"

-ردّت محدقّةً بهيثم: "لكنّي أفسدت حياة الكثيرين أيضًا"

تقدّم هيثم للمجلس ثمّ قال مخاطبًا جدّته: "ربّما لم يحبّ أيٌّ منّا الآخر قبلاً لكن هناك فرصةٌ دائمًا للإصلاح، أوّلًا أريد منكِ شرحًا لصوت الحقّ، حتى أعرف كلّ الحقائق، لا أريد لأيّ حقيقةٍ أخرى أن تتطفّل على حياتي"

-ردّت بلقيس بعد صمت طال: "صوت الحقّ.."

حدّقت بعدها لمدةٍ بليون ثم أشارت له أن يقترب منها ففعل بهدوءٍ شديدٍ ومازالت الغصّة داخله، لتقول له: "ألا يعجبك المكان؟ هذا طبيعيٌّ على كلّ حال، يمكنكما أن تكرهاني بعد هذا حتّى أنت يا عبد الرحمن فأنت أيضًا لا تعلم حقيقة والدتك..

صوت الحقّ، هو اسمٌ لرابطةٍ من الصُّحُفيين اكتشفوا عمليات الاغتيال التي أديرها بنفسي بعيدًا عن عبد الرحمن، فكان يشارك بها أحيانًا قليلة بأوامري فقط، بدايةً أرسلت لهم العديد من التّهديدات علّهم ينسون تلك القصّة، لكنّهم استمروا بالتقصّي وراءنا لهذا خطّطت لتوريط المدير واغتياله، ومع ذلك بقي الصُّحُفيّون صامدين إلى أن اكتشف زوجان منهم الحقيقة، تجسّست عليهما بصعوبةٍ بعدها وعرفت أنّهما سيمرّان على أخت الزّوج ليتركا لها ابنهم الأكبر"

-قاطعها عبد الرحمن قائلاً: "تقصدين جود؟ والطّفل هو هيثم.. في ذلك اليوم عندما أحضرها رجالك إلى هنا وطلبت منّي قتلهما"

-"نعم، في حين التقيت أنت بجود كان الزّوجان ينويان إيصال الطّفل الصغير لخاله ومن تمّ الوصول لأوليفر"

-قال ليون باستغراب: "أبي؟ ما علاقته؟"

-ردّت بلقيس: "لقد كانا ينويان أخذ الوثائق له بعد تجاهل الشّرطة لهم، أوليفر لم يتوقّف عن تتبّع حياتي حتّى كشف ما أقوم به ووصل للصُّحُفييْن، لم يكن يجب أن تصل تلك المستندات له لذا دبّرت وقوع حادثٍ بعد اعتراض سيّارةٍ لهما وجعل المكان وكأنّه حادثًا مروريًا وقع. وقالت

التّقارير بإشرافي أن محرّك السّيّارة انفجر، ثم أُخِذ الزّوجان وقُتلا في حين أنّ أحدًا لم يلحظ الطّفل الرضيع الّذي كان نائمًا بعمقٍ بذاك المقعد إلاّ أوليفر الّذي وصل متأخّرًا وأخذك، كانت تلك معجزةً حقًّا لكن لا حيلة فقد كتب الله لك عمرًا جديدًا يومها"

بدت علامات الصّدمة واضحةً على الجميع وخصوصًا ليون الّذي قال:

-"أبي كان يعرف كلّ هذا؟!"

-"نعم، وقد أخبرني بأمرك حينها أقسمت أنّي سأجعله يندم، وأُخفي كلّ ما له علاقة بهم، لذلك سعيت لقتلكما معًا أكثر من مرّةٍ لكنّك تأبى الموت! كنت النّاجي الوحيد في كلا الحادثتين"

صرخ ليون غاضبًا فيها:

-"كيف تقولين هذا بكلّ برود!؟ تسبّبت بمقتل أهلي مرّتين! بسببك.. بسببك فقدت أعزّ ما أملك.. بسببك.. فقد ليوهارد أباه وأمّه، بسببك ماتت أمّي أمام عيني وضاع أبي من يدي، ليوهارد كان على وشك خسارة حبّه.. بسببك.. بسبب..."

لم يكمل كلماته إذ انهار تخنقه العبرات ليقول هيثم الّذي نال حصته من الصّدمة: "كنت تعرفين أنّي ابن الصُّحُفييْن اللذين قتلتِهما بدمٍ باردٍ ومع ذلك.. أأنت إنسانة؟"

-ردّت مطأطأةً رأسها: "لم أعد كذلك، لقد فقدت ذاتي ونفسي، جثّة والديكما كانتا سمادًا لأزهاري ربّما لهذا اختنقت من المكان، كيف لا ووالديك يرقدان به.. عبد الرحمن أرجو منك أن تسامحني.. أنا آسفة يا بنيّ لقد جعلت نفسي نسخةً أسوء ممّن حذرتك منه"

-قال مشدّدًا على يدها الشّاحبة: "رغم كلّ شيءٍ فقد قمت بواجبك اتّجاهي وأكثر، ربّيتني وضحّيتي لأجلي، آسفٌ لأنّي عجزت عن ملئ الفراغ بقلبك"

ابتسمت بذبولٍ لتقول: "فعلت حبيبي فعلت، كلمة أمي كانت تثلج صدري كلّما خرجت من فمك، ناتالي.. أرجوك لا تكرّري غلطتي.. ذلك الحقير المخادع لقي حذفه قبل زمنٍ طويل لكنّي أردت الانتقام ممّن لمته على كلّ شيء، أرجوكم أن تسامحوني.. أُعميت عيناي وغرقتُ في دوّامةٍ لم أعرف فيها يدًا تُمدّ لي.. عذراء الرّبيع قد ذبلت"

سال الدّمع من عينيها تزامنًا مع انغلاق جفونها للمرّة الأخيرة، لقد فارقت بلقيس الحياة تاركةً ملذّاتها ومساوئها وصدمة الحقيقة للبقية..

«فيصل، لا يهمّ كاسمٍ بقدر ما يهمّ أنّه يمثل بدايةً جديدةً لشخصٍ جديدٍ مفعمٍ بالحياة تعلّمَ أنّ العيش أجمل بكثيرٍ بعد تقبّل الموت ومعرفة نفسك وهدفك الدّنيوي، حتّى تبلغ هدفك الأعظم بالآخرة».

الفصل الخامس والعشرون والأخير: مذكّرات مريضٍ نفسيّ

تعالت صرخات عبد الرحمن إثر وفاة بلقيس في أجواء جنائزيّة، فرغم كل شيء كانت أمًّا مضحّية، ويومًا ما كانت بريئة..

هرع هيثم لأبيه يحاول تهدئته في حين تهافت الخدم على المكان، فمنهم من اتّصل بالحماية المدنية ومنهم من راح يهدّئ عبد الرحمن، في حين تراجع كلٌّ من إياد وليون، حينها خاطب ليون ناتالي قائلاً:

-"سأنتظرك لاحقا بالحديقة الّتي بجانب بيتنا"

-نتالي: "لمَ؟"

-"ردّ: "لتنفيذ وصيّتها طبعا"

خرج الولدان بعد هذا الكلام، ليتصلّ بالسيد محمّد حتّى يُقلّه للبيت، نعم أخيرًا سيعود للبيت ليلقى أخاه وأقرباءه عله يتعافى من آثار هذا اليوم الّذي سينقش بلا شكل بذاكرته.

***

وبعد يومين، التحق به هيثم إلى ذات البيت، هناك سأله ليون: "كيف حال والدك؟"

-"كحال من فقد والدته، لكن أبي قويٌّ وسيتجاوز ذلك، يبدو أنّه قرّر إصلاح ما فعلته والدته ولكن ليس بذات الطّريقة الّتي أصلحت بها هي أفعال زوجها"

-"على ذكر ذلك، لازورافا.."

-هيثم: "آه صح، عندما حكت لنا تلك القصّة تذكّرت حين قال لي السّيد أوليفر مرّة، اعتبرا نفسيكما أخوين"

-ليون: "هذا محيّرٌ جدًّا، لكنّه مريحٌ بذات الوقت"

-هيثم: "فعلاً، مررتُ بما هو أسوء... أظنّ"

ضمّه ليون إليه بهدوءٍ عندما لاحظ اضطرابه ثمّ قال بابتسامةٍ رغم القطرات الّتي غزت عينيه: "بالفعل، يمكن لكلينا البدء من جديد!، أليس كذلك؟ "

-ردّ هيثم بعد أن مسح الدّمع من عينيه: "بلى، لكن في أحلامك أن أناديك أخي.. على الأرجح كانت تتكلّم عن شخصٍ غيرك"

-ردّ الآخر بتجهّم: "وهل تحليل البصمة الوراثية يكذب؟"

-"طيّب لمَ أنت من غير الكلّ؟!"

-ليون: "أؤمن أنّ الصّدف لا تأتي صدفة"

-"عميق.. اذهب وخربش بتلك الأوراق كما تفعل، سأنزل للأسفل عند جورية"

-رد ليون رافعًا حاجبيه بسخريةٍ: "جاء بالأمسِ ويناديها جورية، أين لفظة سيّدة أو خالتي على الأقلّ يا مهذّب؟"

-ردّ هيثم وهو يعبث بيده دونما التفاتة: "هي طلبت"

-ليون مخاطبًا إيّاه وهو يغادر ناظريه: "ينقصك حنانٌ يا أخي!"

لم يلتفت إليه بل غادر بصمت، في حين ضحك ليون مخاطبًا نفسه:

-"حسنًا، يبدو أنّ جورية سيكون لها ابنٌ رابعٌ ومن يلومك؟ أنت لم تعرف لحنان الأمّ مثالا، على ذكر ذلك.. "

نزل هو الآخر الدّرج ليلقى ليوهارد في طريقه الّذي قال: "انتبه أن تصاب بالدّوار كتلك المرّة"

-ضحك رادًّا عليه: "وَلَّت تلك الأيّام، إلى أين؟ "

-"لبشير، لو ترى ما صنع!"

-ردّ ليون: "هو دائمًا يصنع أشياءً غريبة، أريته القرط وتبيّن أنّه هو من صنعه!"

-ليوهارد: "مهلاً، حقًّا؟"

-"نعم، عندما تواصل والداي مع أبي أرسل لهما تلك الفلاشه، وهنا عبّئاها وأعطياها لولديهما، نستنج أنّه كان عليّ سؤال السّيّد بشير من البداية"

-ليوهارد مستغربًا: "تعرف، هذه القصّة لم تدخل عقلي للآن، أصلاً أنا بالكاد اعتدت اسم ليون حتّى تجلب لي اسما آخر بحروف صعبة"

-ردّ ليون ساخرًا: "قل فيصل.. طيّب هيثم فقط"

-ردّ بانزعاج: "يا لك من متنمّر! أخبرتك أنت بريءٌ بالظّاهر فقط! على كلٍّ، وداعًا"

-ليون: "مهلاً ماذا عن ناتالي؟"

-توقّف ليوهارد في حين قال بهدوءٍ حزين: "من يدري... أنا لن أفعل شيئًا هذه المرّة، فلتفعل هي.. أتمنّى"

غادر في حين توجّه ليون للحديقة الّتي ذكرها لناتالي، هناك جلست ردينة تكتب شعرًا في وصف تلك الزّهور ليقول بعد قراءته له:

-"جميل، أسلوبك كالخنساء تشبهينها تعرفين؟"

-ردّت متفاجئةً بعد أن استوعبت أنّه بجانبها: "متى وصلت؟! "

-ضحك في حين قال: "انقلبت الأدوار فسابقًا كنت أنا الشّارد الّذي لا ينتبه يا شاعرتنا بعد القصّة الّتي متأكّدٌ أنّ إياد أسمعها للقريب والبعيد، أحتاج استشارتك"

-ضحكت وسرعان ما ردّت: "فعلًا، لقد صار له حلمٌ جديدٌ هو أن يكون محقّقًا بعد نجاحه الباهر على حدّ قوله ويبدو أنّ حلم المتزلج المحترف قد تغيّر! بالمناسبة، فيصل اسمٌ جميل"

-ليون بعد أن جلس بالمقعد: "حقًّا؟، سأستغرق وقتا لأعتاده، خصوصًا لازورافا من أين تأتي هذه الألقاب؟"

-"لازورافا.. يبدو آسيويًا ربّما لهذا ملامحك هجينة، لديك عيونٌ عربيّةٌ وصفاتٌ آسيويةٌ شعرك وسواده واللّون الرّمادي"

-"على حسب ما رأينا، أبي كان له عيونٌ رماديّةٌ كأهل الصّين وأمّي عربيّة بعيون زرقاء قاتمة، أعتقد أنّ هيثم يشبه أمّي أكثر"

-ردّت ردينة: "ربّما.. سأستغرق أنا الأخرى وقتًا للاعتياد"

-ردّ بمرح: "أخبرتني إحداهنّ أنّ الطّموح والتّطلّع للغد يساعدك على العيش، لذا حاليًا أريد البدء من جديد، باسمٍ جديد، وتفكيرٍ جديدٍ ومنظورٍ جديدٍ لما حولي"

ابتسمت ردينة لكلامه في حين أنّ نظرات الإعجاب على مُحيّاها زادت، هي مغرمة بأسلوب تفكيره وطريقة كلامه ليقول بعد أن طال الصّمت:

-"نسيت سبب لقائنا الرّئيسي، أريد استشارتك في موضوع ليوهارد، أنت بارعةٌ بمثل هكذا موضوعات على حدّ الشّائعات وفكرة الخاتم"

-ردّت باستحياء: "سأعتبره مدحًا، اسمعني يجب أن يرى حبّها له على أرض الواقع قبل أن يطول الجمود وتتحوّل الخيبات إلى أحقاد"

-"يرى.. أنتِ بارعةٌ حقًّا! أوحيتِ لي بفكرةٍ رائعة، تحرّكي أسرعي سنذهب للشّركة"

-قالت مصدومةً محاولةً مجاراته: "لماذا؟"

لم يجبها بل راح يتّصل ببشير ممهّدًا لخطّته وبعد ساعةٍ من لقائهما كان ليوهارد مقابلاً لبشير على مكتبه، في حين يشرح له هو الكاميرات الّتي ركّبها بالمكتب والّتي تعرض له مشاهدًا من الصّحراء بتقنية الهولوغرام المكثّف، ليقول بشير مستغلاً انبهار ليوهارد: "بعض المؤثّرات الصّوتية، ولن تفرق الحقيقة من الوهم!"

-"ليوهارد: "أعترف أنّك أبهرتني"

-"هناك إضافاتٌ كأن أجعل الأرضية تتحرّك بحيث تمشي بمكانك وذلك لجعل الغرفة المحتضنة للتّقنية صغيرةً دونما الحدّ من شساعة العالم داخلها"

-"حسنًا، أظنّه مشروعًا يستحقّ التّمويل بامتياز سيكون مفيدًا جدًّا لنا كوننا شركة إلكترونيات"

صافحه بشير فرحًا في حين انصدم ليوهارد من ردّة فعله، ليقول والابتسامة تكاد تشقّ وجهه: "اتّهامك لي كان أفضل شيءٍ قد حدث في هذه الشّركة! ما زلتُ سأبهرك إن شاء الله "

ابتسم ليوهارد ليستأذنه بعد بعض الاتّفاقات حول التّمويل، ليغادر بشير الغرفة يليه ليوهارد الّذي وصل سريعًا للأرض عند أخذه للمصعد ولكنّه شرد فراح يمشي حتّى نزل يقطع الشّارع المزدحم نحو سيّاراته، في تلك اللّحظة نفسها تراوده محبوبته، ليلمحها فجأةً وهي بقربه، لكنّه لم يتمكّن من قول شيءٍ وهو قد أدرك للتّوّ أنّ الشّاحنة بمنتصف الشّارع أضحت قريبة منه على وشك أن تصدمه..

نهض بعد لحظات مفزوعًا لقد أنقذته ناتالي للتّوّ من حادثٍ كان بلا شكٍ قاتلًا له، ليتوجّه إلى ناتالي الممدّدة على الأرض يتفقّد حالها مفزوعًا، غير أنّها نهضت سليمة تحدّق به بعدم فهم، حتّى انفجرت باكية: "ما الّذي يجري؟! جئت لمكتبك أعتذر فإذا بشاحنةٍ تخرج من العدم!"

توقّف ليوهارد لمدّة ليستوعب أنّ كلّ شيءٍ حوله تجمّد فجأة قبل أن يصرخ: "حقًّا يا بشير!"

بعد جملته تلك، خرج بشيرُ من الباب يكاد يقفز من الفرح وهو يقول بتفاخر: "أخبرتك لن تفرّق بين الواقع والوهم! كان عليك التّأكّد أنّي أطفأته"

-ليوهارد: "جعلتني أمشي في مكاني؟ هذا يفسّر كيف نزل المصعد بتلك السّرعة! سمحت لك أن تجرّب بهذه الغرفة ولكن ليس أن تفزعني هكذا!"

-ظهر ليون من نفس الباب وقال: "انسَ الخدعة وركّز مع فتاتك، أستترُكها تبكي؟"

التفت ليوهارد إلى ناتالي الّتي مازالت تبكي ثمّ مسح دموعها قائلاً:

-"كنتِ تعرفين أنّكِ بالمكتب ومع ذلك ضحيّتي بنفسكِ لأجلي دون استيعاب"

-ردّت بعد أن هدأت قليلاً: "نسيتُ أنّي بالمكتب أساسًا! كلّ ما رأيته أنّي سأفقدك!"

-ابتسم ليوهارد بسرورٍ امتزج بدموع السّعادة ليقول: "شكرًا.. شكرًا حقًّا، كنتُ على علمٍ أنّكِ لم تتغيري"

-ردّت بابتسامة: "أعتذر منك على كلّ ما جرى"

-"سامحتك! من البداية، لكن الآن أيقنت أنّك المناسبة وعقلي تصالح وقلبي!"

سحب ليوهارد الخاتم الّذي أهداه لها من إصبعها ليقول بابتسامة: "تقبلين بي زوجًا؟"

-قالت بسرور وابتسامةٍ عذبة: "طبعًا.. أنسيتَ أنّك بطلي؟ "

ضمّها ليوهارد فجأةً إليه في حين راح ليون يصفّق ضاحكًا وردينة تدمعُ من التّأثّر في حين قال بشير: "عليّ الزّواج عمّا قريب"

-أجابه ليون: "اصنع لنفسك زوجةً وهميةً وعِش معها قصّة كقصتهما!"

-ردّ بشير عابثًا بشعره: "عدت لشخصيتك المرحة السّاخرة حدّ الوقاحة!"

-"نعم، عاد ليون.. أو بالأحرى فيصل"

-"من يهتمّ؟ فيصل نسخةٌ ناضجةٌ من ليون لذا كبّر عقلك أيها المراهق!"

-"حاضر، لكن اترك شعري نتفته!"

لم يستمع بشير إليه بل أكمل العبث بشعره كما اعتاد أن يفعل سابقًا، عندما كان كل شيءٍ بخير والآن عاد كذلك نحن نفتقد من فقدناهم ولكن تقبّل فقدانهم والتّعايش مع الفراغ الّذي تركوه أفضل بكثيرٍ من العيش أسرى لذكرى جميلةٍ معهم، بدلاً من ذلك يمكننا صناعة ذكريات أخرى مع من يستحقّ.

***

تجمهر النّاس يتطلّعون لمعرفة إدلاء كاتب 'مذكّرات مريض نفسيّ'، الدّكتور في علم النّفس والأخصّائي بالتّنمية الاجتماعية للشّباب، ليسأله الصُّحُفيّ بعد الكثير من عبارات التّرحيب: "الكثيرون يريدون معرفة سبب كتابتك للكتاب وتسميته بالمذكّرات، فهل ستجيبنا؟"

-ردّ بابتسامةٍ هادئة: "إنّه يمثّل فترةً من حياتي اكتشفت بها من أكون كخطوةٍ أولى لتجاوز الاكتئاب الّذي وقعت بأعماقه، حينما أدركت أنّه لا يمكنني إرجاع الموتى للحياة فتلك حكمةٌ من الله وقضاءٌ وقدر، ربّما

تتجاوز الفشل، والإرهاق، لكنّ الموت وتقبُّله يتطلّب أن تعرف أوّلاً لمَ تعيش، وإلاّ لبدا لك الموت والحياة كبعض، لهذا كان الاكتئاب عدوًّا لي قيّدني وجعلني أرى حياتي بلا ثمن"

-الصُّحُفيُّ منبهرًا: "أتقصد أنّ كتابك هو مذكراتٌ لك بعد شفائك من الاكتئاب؟"

-ردّ بعد نفسٍ عميق: "بل خلاله، لو كانت رحلتي أيّامًا لكانت على هذا المنوال:

اليوم الأوّل تساءلت: أخي، يا لها من كلمة جميلة .. لكنّها ليست الإجابة الصّحيحة، إنّها مزيّفة ليست الإجابة لمَ أبحث عنه، لمَ لا يمكنني العثور على الإجابة داخلي أو داخل أيّ شخص آخر يراني من منظوره بطريقة ما؟ ما الخطأ في أن تحاول أنا؟ إن عرفت الإجابة هل يحقّ لي أن أعيش؟

وبثاني يوم امتننت فكتبت بروح طفلٍ صغير: من كان يظنّ أنّك قادرة على بثّ الدّفء في كياني، ربّما أنت الوحيدة الّتي ستذرف الدّموع إذا رحلت، فهل يجب عليّ ذلك حقًّا؟، هل يحزنك وجودي أكثر من ذهابي؟ هل أنا عبء عليك كذلك أم أنّه حبّ خالص لا ينتظر مقابلا، ربّما أنا مجرّد طفل صغير يسعد عندما تُعِدّ أمّه حلواه المفضّلة، إن كان ذلك أنا فهل يمكن لهذا العالم القاسي أن يقبل هذا الإنسان حتّى وإن لم يعد طفلا ؟.. لم أعد طفلاً مدلّلاً يا من تراني صغيرًا أبد الدّهر .. لقد صرت .. من؟ من أكون؟

وبثالث يوم ارتعبت من كوني غريبًا بينما هو عادي، فكتبت بيد مرتعشةٍ ودموعٍ تأبى الانسياب: الجميع يراقب، يترقّب، من أنا لأكون محطّ كلّ هذا الاهتمام؟ يبدو أنّني غريب عن الجميع، فإن لم أكن منكم فمن أنا إذن؟

ذلك يرجعني إلى تلك اللّحظة، إلى ذاك الشّعور الجميل عند الشّارع هل كان عليّ أن أكون أكثر شجاعة؟

وفي خامس يوم، تأمّلت عصفورةً فقلت: تلك العصفورة قاومت الموت وهي ترى صغارها ينتظرونها، أولئك الصّغار صرخوا بكلّ ما لديهم من أجلها.. يا للكِ من عصفورة محظوظة!

مجرّد المرور على الشّارع يذكّرني بتلك اللّحظة، ماذا لو كنت أكثر شجاعة؟ لم أكن لألتقي بهؤلاء البشر في حين هناك بشر آخرون اختفوا عند ظهور هؤلاء، يبدو أنّه وقَّع على كلّ الأوراق! أو ربّما هو مشغول وحسب، مع أنّي أشكّ أنّي ما زلت في مكاني، ماذا سأقول عن نفسي غدا؟.. هل سيرونني كالبقية لو عرفوا بتلك الأسرار، يحقّ لهم على كلّ حال أن يتبعوا القطيع بهذه الحالة، على أيٍّ يومٌ جديد! ربّما يكون الأخير، فأنا ، أنا .. من الصّعب الإشارة لنفسي هكذا ببساطة لأنّي لا أعرف نفسي! كلّ ذلك حدث هناك حيث لم يفصل بيني وبين الموت سوى خطوات قليلة لكنّه على كلّ كان شعورًا جميلاً كذكرى جميلة.. ذكراك أفتقدك

أفتقدك أيضًا بحثت عنك فيه لكنّي لم أجدك، حينها غرقت في الماضي وفي سادس يوم ناجيت من حولي: أنا آسف ما كان عليّ أن أدفعك للقدوم، إنّك محقّ تماما أنا وحيد، مهمل، وعديم الاهتمام ليتك لم تلتق شخصا مثلي، مجرّد نكرة لا يضيف ولا ينقص عند أيّ أحد هل أستحقّ معاملتك الطّيبة؟ أنا .. أنا من؟.. أرجوك أجبني ألست من سألني إن كنت أعرف؟

لكن استجابتهم كانت كعدمها فرحت في نهاية الأسبوع أفكّر أنّي أعقّد الموضوع؟ ليس ذنبي إن تحطّمت بسببك، للأسف أنا من عظّمتك في رأسي وحلمت بك كأخٍ وصديقٍ وقدوة!

لكنّك محقٌّ، ربّما حمّلتك أكثر ممّا تقدر عليه .. أنا آسف حقّا آسف يمكنني تقبّل كرهك لي فبالنّهاية أنا مذنب في ما حصل قبلا، لكن إن كنت تكرهني فلا تنافق فقط قل ذلك صدّقني سأقبله، حاليًا انس أمري وحسب فهو بالفعل ليس ذنبك، فلتكرهني إن أردت لا بأس بل يحقّ لك، لم أعد أبالي على الأقل لن تحزن إذا رحلت هذا أفضل لكلينا صحيح ؟ من أنا لتحزن عليه؟ افعل ما تريد لا أريد أن يفكّر بي أحد أريد الرّحيل بصمت كما جئت بصمت، هل هذا ممكن حتّى؟

ولمن تشابهت روحينا تكلّمت، فقلت: أنت غريب حقّا، حسنًا أظنّ أنّ هنالك فرقا بين المنافسة والعداوة، على الأقلّ أنت صادق.. فأنت لم تقصد سوءًا، دعني أؤمن بذلك وحسب وأرجوك لا تخيّب أملي بك أنت الآخر فإن فعلتَ لا أعلم كيف سأتصرّف.. أرجو أن لا يحدث ذلك .

وفي ثامن يوم تألّمت: هذا مؤلم، لا أقصد الكسر الّذي في عظامي بل الكسر الّذي سبّبته!.. ولو أنّك مسؤول عن كليهما، يمكنني أن أتظاهر بالجهل وكأنّ كلّ ما جرى اليوم كان محض صدفة أتساءل كيف تشعر أنت حيال الأمر ؟

ومجدّدًا مازال السّؤال ذاته يتردّد عليّ بهذه الشّدّة مع كلّ موقف.. من أنا؟

باليوم التالي أدركت: لست خائفا من ذكريات الماضي، هي لم تفارقني على كلّ حال... أنا خائف من يُدَمّر الحاضر الّذي أعيشه، بأن أكون السّبب في فقدانك أنت أيضًا.

واليوم الحادي عشر كتبت: نميل للكذب والاخفاء متحاشين الحقيقة، نحن نخاف منها و نهابها ليبني كلّ منا جدارًا حول نفسه يصير سجنًا مع كلّ طوبة تضاف إليه، حتّى أضحينا سجناء أقرب للجثث قابعين خلف جدار الكتمان، يمكنني أن أكون حرًّا.. صح؟

تبدو إجابةً جيّدة فالحرية صفةٌ لا بدّ أن تتوفّر لتكون إنسانًا ذو هدف، وإلا عشت سجينًا أبد الدهر..

وبالثاني عشر عدت لأسأل من شابهني بالرّوح، واكتشفت لاحقًا أنّنا إخوة وكأنّ الحياة كانت تحاول تنبيهي ولكن لا حيلة فالحقيقة واضحة للغاية لنراها: ألست غريبا؟ إنّك متناقض وكأنّ لك شخصيتان مختلفتان عن بعضهما مائة وثمانين درجة، حسنًا كلّنا نمتلك شخصية قويّة نظهرها للعالم محاولين إقناع أنفسنا أنّنا أقوياء أمامهم، وأخرى ضعيفة لا تظهر إلاّ لمن تثق بهم فإن غابوا أضحى ذاك الجانب طاغًيا ومحطّمًا لنا، إذن من نحن منهما؟ نحن الاثنين.

ثمّ باليوم الرابع عشر بدأت ألمح التّغيير فجال بخاطري أنّه: تسارع اللّحظات فجأةً فنعجز عن فعل أيّ شيء، حينها كلّ ما حولنا يظلم سوى فؤادنا يظلّ ينبض ويعطينا أملاً جديدًا في الحياة.

الفرق كبيرٌ بين أوّل ما كتبت وآخره، أظنّني بتّ قريبًا من أن أدرك من أنا.

وبعد أسبوعين ، اكتشفت جزءًا من الإجابة أيقنت فيها أنّ الجواب أضحى قريبا؛ فكلّ مكان في هذا العالم يحمل قصّة مختلفة، يحمل أرواحًا كانت فيه، أرواح عاشت وعانت ورضيت بالحياة، أرواح انتهى ملاذها إلى الأرض تمامًا كأساس أيّ بناء.

في هذا الأمر، أهذه صدفةٌ أم حكمةٌ في الحياة؟، أنا الآن مقبلٌ نحو أحد هاته الحيوات متشبثٌ بها فقط ولا أحتاج سبباً، من أنا؟.. أنا النّاجي.

ومن ثمّة عرفت الحقيقة، فيصل لا يهمّ كاسمٍ بقدر ما يهم أنّه يمثّل بداية جديدة لشخص جديد مفعم بالحياة تعلّم أن العيش أجمل بكثير بعد تقبّل الموت ومعرفة نفسك وهدفك الدّنيوي، حتّى تبلغ هدفك الأعظم بالآخرة"

صفّق الجمهور بعد كلماته ليقول الصّحفيّ:

-"كتابك كان مصدر إلهامٍ لعدّة أطبّاء بعلم النفس ومرشدًا للعديد من الآباء الذين أدركوا الخطأ الذي ارتكبوه حين تجاهلوا حالات أبنائهم النفسية"

-ابتسم ليقول بفخر: "هذا كان هدفي، هل تسمح لي بمخاطبة كلّ من هو بمكاني السّابق حاليا؟"

-الصُّحُفيّ: "بالطّبع! تفضّل"

-"رسالةٌ لكلّ من يجهل ذاته ويريد سببًا للعيش حتّى لا يفرّط بروحه، لتعرف أناك وتتمكّن من تقبّل قسوة الحياة، اسعَ لتحقيق هدفٍ لك، فذلك يعطيك شعورًا بأنّك موجود، أنا تساءلت عمّن أكون وقد عرفت الإجابة،

ربّما أنا مجرّد تائه، لكن يمكن لهذا التّائه أن يسلك العديد من الطّرق بدل الجلوس والبكاء أو طلب النّجدة إذا حدّدُت من أكون، أعتقد أنّي مجرّد

إنسان، يحتاج هدفًا دنيويًا قبل هدفه بالآخرة، يحتاج أن يعيش فقط ويحسّ بوجوده وتأثيره بأن يمارس حقّه، يحلم، ويحاول، يسقط وينهض باستمرار، وبنفس حلقة التآريخ حتى الفناء، ربّما العيش بطموح بغية تحقيق أهداف ولو كانت بسيطة كأن تُسمع أحدهم كلمة أخي، أمّي ،أبي، أن تنقذ عصفورة، أن تُمنح الفرص وتعيش الصّدف، أن تُزيل الوحدة عن إنسانٍ ربّما ..ألست عظيمًا؟

العيش بصدقٍ وأملٍ بعد كل انتفاضةٍ ومع كلّ قرميدةٍ تهدم من جدار الكتمان، وأخيرًا تقبُّل الموت، كلّ ذلك يساعدك على عيش حياةٍ جيّدة.

أنا كلّ ما سبق من هؤلاء وذلك يكفيني لأنّ وجودي يؤثّر، وحياتي لها قيمةٌ لغيري ولنفسي فأنا أريد أن أنهض كلّ صباحٍ لأجل هدف وشخصٍ ما حتّى، وأنا حيٌّ وأريد الحياة فمن المستحيل أن أفرّط بحياةٍ تحمل كلّ هذا بين أيّامها، باختصار اِعرِف من تكون لنفسك وللآخرين وستدرك أنّ لك قيمة، وستحبّ الحياة أكثر وحتّى إن فقدت هدفك أو الشّخص الّذي عشت لأجله، هل ستتوقّف الحياة؟ بالطّبع لا فمثلما وجدت هدفًا ومثلما أحببت شخصًا وأفنيت عمرك له، يمكنك أن تجد المزيد والله سيوفّقك لتجده، فحياتك لها ثمن وأنت مسؤولٌ عنها".

رجع الجمهور للتّصفيق بعد كلماته تلك لتنتهي المقابلة وينطلق حفل توقيع الكتاب، وبعد الكثير من المصافحات والتّوقيعات حمل هاتفه متّصلاً بأخيه لتردّ فتاةٌ صغيرةٌ خضراء العيون كوالدها لكنّها أخذت كل الجمال من أمّها: "عمّي فيصل!"

-ردّ: "أمونة، كيف حالك؟"

-" بخير، بابا كسر باب غرفتك بالغلط"

-تدخّل ليوهارد في الاتصال قائلًا: "فضحتني مباشرةً! ها انتهت توقيعاتك؟"

-ردّ بتعب: "نعم، كان ذلك ممتعًا على كلٍّ"

-نطقت الطّفلة بفرح: "رأيتك على التّلفاز!"

-"حقًا؟ كيف بدوت؟"

-"رائعا يا عمّي"

-ليوهارد: "حسنًا، لنترك عمّك الآن ونتجهّز للذّهاب عند جورية"

-فيصل: "سلّما عليها، وعلى السّيد محمّد وهيثم"

-"حسنًا، هيثم صار يعيش عندها تكاد تكتبه بدفتر عائلتها"

-"فعلاً، لكن هذا ليس سيّئًا.. أراك"

لمح ليون ناتالي قبل أن يغلق الخطّ وهي تنسّق حجابها الّذي وضعته بعد الزّواج، الزّواج الّذي تكلّل بسعادةٍ بعد إنجاب طفلتهما 'آمنة'، والّتي سمياها على اسم أمّ ليوهارد، أمّا بالنسبة لهيثم فهو الآخر لم ينقطع عن أبيه الّذي فتح العديد من القضايا الّتي سرقت حريته من بعض سنواته، لكنّه مع ذلك كان راضيًا إذ تحسّنت صحّته بشكلٍ ملحوظٍ غير أنّه رفض الزّواج رغم ترشيحات هيثم المستمرّة له، لم يبقَ أحدٌ كما كان بعد هذه الرّحلة الطّويلة ولكنّه على الأقلّ كان تغييرًا نحو الأفضل..

وبعد نهاية المعرض، تقدّم المدير نحو فيصل يشكره على تلبية دعوته فهو رفض الظّهور في العديد من البرامج لأنّه لم يكتُب كتابه الشّهير إلا تفريغًا عمّا بداخله ولم ينشره إلا بغرض التّوعية والتّخفيف عن كلّ من تطاول عليه الاكتئاب، وما أكثرهم!

لا بغرض الشّهرة والمال فاستغلال معاناة الآخرين ليس سوى انعدام إنسانية، وقسوةً اتّجاه هؤلاء..

خاطبه المدير وهو يُقدّم له كاتبة شعرٍ شابّةً هي مشاركةٌ بالمعرض:
"أعرّفك على شاعرتنا الأبرز 'كوثر أحمد' لقد جاءت للمعرض خصّيصًا لمقابلتك، سأترككما تتكلّمان على انفراد "

غادر المدير لتقول الفتاة: "مرّ زمنٌ طويلٌ مذ التقينا، كيف حالك ليون؟"

-ردّ بابتسامةٍ عذبة: "الحمد لله، وأنتِ ردينة؟ ".

-انـتـهــى-

عن الكاتبة مروة خلخال:

خريجة قسم اللغة والأدب العربي بجامعة أبو بكر بلقايد تلمسان سنة 2026.

كاتبة روائية لامعة ومدربة بالمجال.

تُعد رواية 'من أنا؟' أول أعمالها، وهي الفائزة عن مسابقة دار الكاتب لسنة 2023، والتي حضيت بندوة خاصة مع نخبة من الأستاذة والدكاترة ضمن تكريم خاص للكاتبة بجامعة أبو بكر بلقايد بلتمسان

أعمال أخرى :

رسائل من الموتى-عن مسابقة دار زين بمصر 2024

-مملكة الليل -عن مسابقة دار ميزوبوتاميا بسوريا 2025

أركان--عن مسابقة دار المبدعون العرب بمصر-2026

وتسعة أعمال أخرى بطريقها للنور.